نوار جلاحج

الساعة المقدسة

وقصص أخرى

الساعة المقدسة

وقصص أخرى

نوار جلاحج

إهداء

إلى جميع المناضلين والمعتقلين والمنفيين والمهجرين والشهداء

من أجل الحرية

في سوريا

وفي كل مكان على هذه الأرض

الساعة المقدسة

منذ ثلاثين عاماً وهو يرافقها ويمسح وجهها الزجاجي الكبير قبل بزوغ الشمس ، لتستقبل يومها الجديد بكامل أبهتها وأناقتها ، بعد أن أمست الملكة المدللة للمدينة الكبيرة ، والزاوية المشبعة بذكرياتها الحميمة والمؤلمة في آن واحد .

كل يوم آلاف الرؤوس كانت ترتفع إليها ، تتمعن فيها وتمضي . ما من أحد إلا نظر في عينيها ، وضبط ساعته عليها مئات المرات . لا يأتي زعيم أو إمبراطور أو شيخ عشيرة إلى المدينة إلا يساق إلى هيكلها ، لا يعبر تاجر أو سائح أو حاج المدينة إلا ويتوقف في ظلالها . كم من القصائد قيلت في عظمتها وجبروتها ، وكم من الخطابات أشادت بدورها التاريخي ودقتها الحكيمة . ما من لوحة رسمت إلا وطلت الساعة برأسها من تحت ألوانها وخطوطها ، وتسابقت التماثيل في تجسيد ملامحها لتنتصب كالفزاعات في جميع ساحات المدينة .

الجميع أمسوا مصابين بلوثة الزمن منذ أن أتت إليهم هذه الساعة ، فمعها كان على عصر جديد أن يبدأ ... المدينة التي عاشت قروناً على هامش الأزمنة وجدت في هذه الساعة المخلص المنتظر الذي سيعيدها إلى مجدها الغابر . وكيف لا ... فمنذ الآن على كل واحد منهم أن يتسلح بساعته فحسب ، فالساعة الكبرى أتت ، وبعونها تعالى سيضبط الزمن في المدينة كلها من عاليها إلى أسفلها ومن أقصاها إلى أدناها .

وحقاً كل شيء ضبط بدقة متناهية لن تنساها المدينة ما حيت ...
فمع الدقة الأولى للساعة لقمت البنادق ، ومع الدقة الثانية رفعت الشعارات ، ومع الثالثة ظهرت الأسماء ، وفي الدقة الرابعة أخصيت الأصوات ، وفي الخامسة تماماً

بدأت الهتافات ، وفي السادسة رفعت القضبان ، ومع الأخيرة صعدت في أجواء المدينة رائحة الأحقاد ...

في كل يوم كانت جميع الساعات تضبط ... ولأكثر من مرة ، فالجميع كان مؤمناً أن لا سبيل آخر إلى الحياة ... فكيف للعاشق أن يلتقي بفتاته إن أخطأ الموعد ، وكيف للمهاجرين أن يرحلوا إن فاتتهم القطارات ، وكم سيطول حلم الشاعر إن غرقت تخومه في المجهول ، وهل ستصدق الحوامل طلقها ... ، وكم ستنتظر الحشود قبل أن تفتح أبواب المصانع والمؤسسات الحكومية والمقاهي والخمارات والمخازن والمعارض ودور العاهرات والمتاحف والمقابر والمسارح والسجون .
ولكن لكثرة ما ضبطت الساعات أصبحت كثيرة العطب ، فتزايد عدد مصلحيها في المدينة ، ومعهم تكاثرت أجهزتهم ومؤسساتهم ... وتفرعت ، وتطورت أدواتهم ... وتنوعت ، ولم يعد يخلو بناء أو خان أو شارع في المدينة من واحد منهم . فقد كانوا شديدي الحرص على ألا تفوتَ الفرصة أحداً في ضبط ساعته أمام الساعة الكبرى والمقدسة .

وبمرور السنوات بدأ صبر الكثيرين من العشاق ينفد مع دقاتها ، بينما عشرات السجائر تحترق بين أصابعهم ، وتتساقط تحت أقدامها آخر عناقيد مشاعرهم . كثيرة القطارات التي لم يلحق بها أحد ... أحلام الشعراء تمزقت ... الأطفال أخذوا يولدون في التوابيت ... وأغلقت جميع البوابات في وجه الجميع .
وبقيت الساعة تحرك المدينة ...

كم من المؤمنين هُرِعوا إلى الصلاة في المساجد والكنائس ، بعد أن خضعت مواقيت آذانها وأجراسها بصورة نهائية لتوجيهات الساعة ... رغم أن الكثيرين منهم لم يخفوا دهشتهم صراحة من عدم استجابة السماء لدعواتهم وابتهالاتهم الصادقة .

كم مقتها البعض لعدم قدرتها على اللحاق بركب التوازنات الإستراتيجية والمعلوماتية وسباقات العولمة ... وأعاد إليها آخرون كل أسباب التخلف والجوع والبطالة والكبت الجنسي .

أي رعب أخذ يولد في النفوس وعقاربُها تحاصرهم في الشوارع والحانات والأقبية وتحت أغطية الأسرة ، تخرج برأسها إليهم من بين الصحون والأوراق والأزهار والابتسامات ، وتلاحقهم حتى في كوابيسهم الليلية . وكم لدغت هذه العقارب من الفلاسفة ، ودفعتهم بسمومها نحو العزلة أو الانتحار .

ولكن ذلك لم يمنع الكثير من المؤرخين الجهابذة أن يؤكدوا حتى اللحظة أنه لم يكن للمدينة تاريخٌ قبل هذه الساعة ... وهذا صحيح !! فساعة الصفر لجميع الثورات الصغيرة الفاشلة ضبطت عليها ... ومع كل خطوة لعقاربها هي .. كان المعتقلون يحلمون برائحة الخبز والنساء والشمس ... كل المعارك الخاسرة انطلقت مع صرخاتها المدوية ، ومعها كانت تعلن الانتصارات في ذات المعارك !!

الخطط الخمسية ومواسم الحصاد ومواعيد الأعراس ومواكب الجنائز وتحويل الأموال عبر المحيطات وتهريب المخدرات وآثار الأجداد ودفن النفايات النووية ودفع الإتاوات والرشاوى وضرائب الرفاهية والمجازر الجماعية ... كل ذلك كان يرضخ لإرادتها وحدها فحسب .

وكلما كانت المدينة تقع على حافة الموت ، كان أطباء المجمع السلطوي يشخصون نبض شوارعها على أصوات الساعة ، ويقررون بثقة كاملة وحزم أنها لم تزل حية ، وقادرة لقرون طويلة على الحياة .

أما هو فلم يزل بذات الروح الرثة ، والرأس المجعد ، يتسلل إليها كل يوم في غفلة منهم ، يتسلق سلالمه المعدنية المسننة بخطوات متأنية ، ناظراً نحوها بعيون فارغة ... متخثرة ، ليمسح بيدين ثابتتين وجنتها العارية المرعبة طويلاً ، وفقط عندما

يتأكد من قدرتها على مواجهة المدينة بعقاربها الطويلة السامة ... ورنينها الخانق ، كان ينظر إلى معصمه ...إلى ساعته هو... ويمد يده خلف الساعة الكبيرة المقدسة ... ويضبطها ... دون أن يدرك أن المدينة ماتت منذ زمن بعيد .

****

الشاشة

في مبنى الطاحونة المهجور ، في الطابق الثاني غرفة بجدران ملطخة بألوان الزمن عدا جدار واحد قام بطليه باللون الأبيض وكان دائم الحرص على بقائه نظيفاً ناصعاً لا تضيع على سطحه الأضواء المنبثقة من آله العرض السينمائي التي تقف في مواجهته إلى جانب كرسي خشبي قديم .

إلى هنا كان يحضر قصاصات النيغاتيف التي يتخلص منها المخرجون وراء طاولة المافيولا ويرمونها في سلة المهملات ، ليقوم هو بإفراغها كل يوم بصفته عامل النظافة الأقدم في المؤسسة العامة للسينما ، ويشاهدها جالساً على قطعة الأثاث الوحيدة في الغرفة .

آلة العرض نفسها أحضرها عندما قررت المؤسسة التخلص من بعض معداتها القديمة ووضع دفتر شروط لمناقصات سيتم بموجبها شراء آلات عصرية لا تصدر ذلك الصوت الأجش الشبيه بصوت حمار يلفظ أنفاسه الأخيرة عندما كانت بكراتها تدور لإخراج الصور المتحركة من فتحتها المهترئة المليئة بالخدوش .

في البداية لم يكن يعلم بالضبط ما سيفعله بها ، لم يفكر في الأمر حتى ، حملها وغيرها من الأشياء البالية بعد أن أقنع رئيس لجنة الإتلاف أنه سيوفر على المؤسسة الكثير من الأموال التي ستذهب إلى جيوبه طبعاً إذا ما عهد إليه التكفل بأخذها بعيداً عن وجهه وعلى حسابه الخاص .

إلى الطابق الأول من الطاحونة جلبها كما كان يجلب كل ما يقع تحت يديه من أشياء زائدة عن حاجة البشر ، لم يستطع أن يتغلب على هذا الوسواس القهري على

الإطلاق . شيء ما أثار فضوله إزاء هذه الآلة التي لطالما تعجب من قدراتها السحرية في نقل العالم بأكمله إلى شاشة مستطيلة بيضاء . فقرر حملها إلى الطابق الثاني بعد أن قام بإفراغها وتنظيفها ليتملكه وسواس جديد معها سيستمر لسنوات طويلة .. سيستمر معه حتى النهاية .

هنا في هذه الغرفة كان يجلس ساعات طويلة يشاهد قصاصات الأفلام التي لم يكن يجمعها ببعض أي سيناريو أو ديكوباج أو مونتاج أو إيقاع .. الأمر الذي جعله على غير عادة المشاهدين التقليدين وعشاق النوادي السينمائية يتعلق بها أكثر فأكثر .. هذا التدفق في اللقطات والمشاهد المتناثرة غير المترابطة جعل منها فيلماً ساحراً لا ينتهي في مخيلته .. ومع هذا الفيلم العجائبي كان يحب ويكره .. كان يضحك ويبكي .. كان يتألم ويفرح ويجوع ويعطش ويتنفس ..

في ذلك اليوم كان المشهد طويلاً .. مع صخب آلة العرض لم يكن ثمة على الشاشة سوى طائر وحيد يحوم في فضاء الشاشة .. لا يتغلغل في عمقها .. لا يخرج من إطارها .. طال المشهد أكثر مما اعتاد .. بدأ الملل يتسلل إليه .. لكن تشوقه لما قد يحدث بعد ذلك جعله يتردد في استبدال الشريط دون انتظار نهايته كما يحدث عادة .. غير أن هذا الشريط كان طويلاُ على غير العادة .. ازداد ملله وبدأ يتثاءب ويتململ .. لكن فجأة حدث أمر غريب .. بدا وكأن الطائر قد قرر الخروج من الشاشة .. ما يحدث عادة بسهولة وسلاسة .. ليس هذه المرة .. بدا وكأن الطائر يريد الهروب من الكادر .. يطير إلى الأعلى فيصطدم بإطار الشاشة .. يحاول الانطلاق نحو اليمين و الانعتاق من الأضواء فيرتطم رأسه بحوافها .. يقرر الطيران إلى اليسار فتتخبط جناحاه. يهوي ساقطاً إلى الأسفل .. يقفز بخطوات يائسة على أرضية الشاشة ..

لم يعد يحتمل مشاهدة هذه المعاناة ... نهض عن كرسيه واتجه بكل ثقة وشجاعة نحو الجدار الأبيض ... حمل الطائر بيديه الكبيرتين المشققتين والمرتعشتين وأخرجه من الشاشة .. واتجه نحو النافذة ذي الدرفات المتكسرة وأطلقه نحو السماء وهو يتابعه بنظراته مبتسماً.. ودمعة كبيرة علقت على أطراف جفنه .

لم يكن الوحيد الذي يشخص نحو السماء هذا اليوم . ثلة من القتلة الجوالين كانوا يحومون في الجوار .. التقطت نظراتهم الطائر .. ولم تتردد بنادقهم بإطلاق الرصاص نحوه ..

أخطأته معظم الرصاصات .. واحدة منها فقط استقرت في طرف جناحه .. لتجعله يهوي بصورة لولبية نحو الأرض ..

تسمرت عيونه للحظة مشدوهاً أمام المشهد غير مصدق ما يراه .. مسحة من الرعب والمفاجأة ارتسمت على محياه .. ودون شعور منه .. على نحو لا إرادي ركض في اتجاه الباب الذي كان صريره يسمع في كل الإرجاء عندما تهب الرياح العاصفة في الشتاء .. نازلاً الدرج بسرعة خارقة لم تعتدها قدماه يوماً وما إن خرج من المبنى المهجور راكضاً حتى لمحه القتلة .. وبفطرتهم السليمة وغرائزهم الفتاكة أدركوا مقصده وركضوا في أثره واطئين على كل ما في طريقهم من أعشاب وسنابل وفراشات وأزهار برية ..

حتى أسرع العدائيين في العالم ما كانوا ليدركوا قفزاته الواسعة المنفلتة من أي عقال ..

حمل الطائر الجريح برفق بيديه الكبيرتين المشققتين .. كما فعل في المرة الأولى تماماً عندما أخرجه من الشاشة واعتقه إلى الهواء .. لكن بين المرتين بدا له وكأن حياة كاملة مضت .. كأنهما صديقان عتيقان .. عرف أحدهما الآخر منذ الطفولة .. كأنهما جلسا على المقعد ذاته في المدرسة .. كأنهما تشاركا الطاولة ذاتها في الخمارة .. كأن قيداً واحداً كبل أيديهما في قبو الأمن السياسي ..

ركض به نحو مبنى الطاحونة المهجورة ومن ورائه كانت تصدح أصوات البنادق .. كأنهما عادا معاً إلى زمن الحرب الأهلية .. يهربان معاً من جديد .. يهاجران معاً مرة أخرى ..

صعد الدرج بوثبات طويلة وواثقة .. أغلق الباب الصدئ بسرعة ووضع الكرسي خلفه على أمل في أن يعيقهم إلى أن !! إلى أن ماذا ؟! أخذ يلوح ببصره في كل

الأرجاء باحثاً عن مكان لا وجود له .. أين المفر .. إلى أين سيذهبان الآن .. هل وصلا أخيراً .. أهي النهاية .. ؟؟

أصوات أحذيتهم العسكرية المتصاعدة على درج المبنى المهجور امتزجت بالصوت الأجش لآلة العرض السينمائي كحمار ينازع .. نظر إلى الأضواء المنعكسة على الشاشة البيضاء .. مضى نحوها بخطوات ثابتة .. أخذوا يطرقون بقبضاتهم وأحذيتهم وأعقاب بنادقهم الباب المتصدع بقوة ستنتزعه بين لحظة وأخرى .. ألقى نظرة أخيرة نحو الباب قبل أن ينهار تحت ضرباتهم الشرسة ويقتحموا غرفته في الطابق الثاني من الطاحونة المهجورة حيث عاش لعقود في عزلة لذيذة دافئة ومطمئنة ..

كادت عيونهم أن تنهشهما .. قبل أن تتغير في لحظة سطوة ملامحهم القاسية المهيمنة و الواثقة أمام هول المفاجأة .. لم يرتعد من الخوفِ الموظفُ البسيط في المؤسسة العامة للسينما .. لم يجثم أمامهم مترجياً العفو عنه .. لم يشح بنظره عن نظراتهم .. لم ينطق بحرف واحد حتى .. استدار بكل بساطة وولج إلى الداخل ..

لم يصدق القتلة ما يشاهدونه .. على الشاشة مسح بيديه الكبيرتين المشققتين جناح الطائر وأطلقه في الفضاء السينمائي .. دار الطائر فوق رأسه بضع مرات قبل أن يحلق مبتعداً إلى عمق الكادر فيبتلعه المنظور شيئاً فشيئاً .. إلى حيث سيمضي هو أيضاً بعد لحظات .. إلى حيث سوف يضيع ولن يجده أحد .. التفت نحوهم .. فما كان منهم سوى أن وجهوا بنادقهم نحو الشاشة البيضاء وفتحوا النار عليه .. رغم أن الجدار امتلأ بالفجوات لم يستطع أن يكبت ضحكاته أمام مسحة البلاهة التي غطّت وجوههم ,, مما زاد من غضبهم .. استبدلوا مخازن البنادق وقرروا القيام بجولة جديدة من الإعدامات الميدانية .. ارتفعت قهقهاته وأخذ يتلوى حتى كاد يغشى عليه من الضحك .. لكن البلاهة تحولت إلى مس من الرعب عندما بدأت الدماء تسيل من فجوات الجدار الأبيض .. عندها توقف عن الضحك .. استدار ومضى .. انفجرت الدماء من الفوهات كالينابيع بسرعة أكبر .. لتتدفق بقوة على الأرض

نحوهم .. وتبتلعهم.. لتخرج من باب المبنى المهجور وتغمر كل شيء في طريقها .. لتستحيل إلى طوفان يغرق الحقول والقرى والأحياء والمدن والبلاد والعالم .

***

موت شاعر

عندما دخل أمام المشيعين إلى المقبرة لينهي تسعة وعشرين عاماً مع زوجته ، شعر لأول مرة في حياته بالندم على زواجه منها ، ولم يخفف من حدة ذلك الندم حتى رؤيته لأولاده الثلاثة الذين يتقدمونه حاملين نعشها . لم يكن مبعث هذا الندم كما قد يخيل للبعض حياته التعيسة معها ، على العكس فالزوجة كانت من تنك النساء التي يحلف برأسها ، فهي لم تقصر يوماً إزاء واجباتها الزوجية المقدسة التي توارثتها أم عن جدة منذ أن تسلمت الرجولة زمام الأمور في هذا العالم . ولكن رؤيته لذلك الصديق القديم بين الحشود ، بياقته الأنيقة ، وصحفه المكدسة تحت إبطه ، جعلته يعود بذاكرته إلى تلك الأيام الغابرة عندما لم يكن أحد من الناس قد سمع بهذا الصديق القديم كشاعر كبير ، ليتساءل بمرارة في داخله عن ذلك القدر الغبي الذي لم يجعل منه هو ذلك الشاعر الكبير ، وفضل هذا التافه ذا الياقة الأنيقة والصحف المكدسة .

في صندوق خشبي صغير متآكل ورثه عن أبيه الذي كان يحلم في أن يصبح عالماً بالحشرات فوضع فيه جميع أنواع الصراصير التي قابلها في حياته ، كان لا يزال يحتفظ بقصائده الصفراء المتجعدة التي كان يوقعها بزهرة يلصقها في أسفلها قبل أن يرسلها إليها ... ورغم أنه لم يقرأها منذ تسعة وعشرين عاماً كان واثقاً حتى اللحظة من أن لا نيرودا ولا نزار قباني قادران على مجاراته في استعاراته وعواطفه وشاعريته التي كرسها في حبها ، والتي انتهت وماتت في أعماقه منذ اللحظة التي تخلت فيها عنه .

لم يكن البحر في حالة رومانسية عندما تلاقيا للمرة الأولى ، فبعد أن تلاقت نظراتهما لثلاثة أيام كاملة استجمع كل قواه وجرأته وغطس وراءها في البحر الذي وصل ارتفاع أمواجه حسب النشرة الجوية إلى فوق معدلاتها . وفي غمرة المياه المتلاطمة على وجهيهما تعارفا ببساطة وشعرا بانجذاب خاص تجاه بعضهما البعض ، وقبل مغادرته لمدينتها أهدته عشرات الحجارة الصغيرة الملساء والملونة التي جمعتها بإتقان مدهش بأناملها الدقيقة من الشاطئ في أمسيتهما الأخيرة ، ووضعتهم في علبة بلاستكية تباع فيها أحد أنواع البوظة الرديئة الطعم والتي اضطرت إلى لعقها بأكملها من أجله كما أخبرته حينذاك ... وهو ما جعله يتذكرها في كل مرة يتناول فيها بوظة مقرفة طيلة عشر سنوات ، قرر بعدها أن يكف عن شرائها إلى الأبد ...

عندما هجرته فجأة دون أي توضيح أو اعتذار لم يفهم ما يجري ، فباستثناء تباينهما الطبقي واختلاف دينيهما وأصولهما العرقية وميولهما السياسية وفارق العمر كان كل شيء بينهما على أفضل ما يرام وأجمل ما يكون ، فلماذا هكذا ودون كلمة أخيرة تركت كل شيء ومضت ...

بقى ينتظرها شهوراً طويلة ، وفي كل عيد كان يعتقد أن سماعة الهاتف سترن ويرتفع إلى أذنه صوتها الرقيق ... وفي عشية كل عيد كان يشتري لها هدية وينتظرها ... لكن جميع الأعياد مرت ... عيد ميلادها وميلاد المسيح والرسول الكريم ورأس السنة وعيد الفطر وعيد الثورة وعيد الحب وعيد الفصح دون أن تتصل به ...

عندها شعر بثقل كبير في قلبه ، بل كره قلبه وما عاد يثق بمؤامراته الخبيثة ، وقرر أن ينساها ومعها كل البحار والقصائد والحجارة والأعياد والهدايا .
وهكذا تزوج من امرأته التي يقوم أبناؤه الثلاثة الآن برمي التراب فوق كفنها ، حيث يقف على بعد خطوات منها صديقه المتأنق بياقته وصحفه وحزنه المتصنع ، ليدرك فجأة أن لا حقيقة في العالم تحمل معنى مثل الحب ، الذي كان قادراً معه

فحسب أن يكون ذلك الشاعر الكبير ، لكنه لم يفهم لبرهة ما الذي يدفع إلى رأسه بكل هذه الأفكار ، ولم يكن ليخطر له أن السبب بسيط للغاية ، فأمامه مباشرة انتصبت شاهدة عمرها تسعة وعشرون عاماً لفتاة لم تمنحها الحياة ما يكفي من الأمسيات للأعياد والهدايا والحب ، رغم أنها كانت تعشق البحر والقصائد الموقعة بالأزهار وتنتقي بأناملها العاجية أجمل الحجارة في العالم .

***

الملحمة

«يقولون لكل جيل أحلامه ، وعلى الرغم من أنهم يقولون الكثير من الهراء ، غير أننا من غير هذا الهراء لا نستطيع أن نعيش ، وهذه المقولة العبقرية هي كذلك نوع من الهراء الذي سيقتدي الكثيرون به يوماً ما ...»

أما مناسبة هذه المقدمة التي كتبها على ورقة كلينكس قبل أن ينام ، ومسح أنفه بها في الساعة الثالثة ليلاً عندما استيقظ على كابوس لم يزل يراوده منذ خروجه من المعتقل قبل بضع سنوات مرتبطة بمشروع روائي قديم كان يجول في رأسه ، لا بل حشرته فيه صديقة قديمة كانت تعشقه وتؤمن بعبقريته حتى اللحظة التي انفجر غاضباً في وجها بعد أن سئم كلامها عن سمعتها الطيبة في الحي ، والتي أصبحت مهددة من جراء زياراته المتكررة إليها في الأمسيات وهو في حالة يرثى لها من السكر ، عندها صارحته للمرة الأولى بأنه كاتب فاشل ولا يساوي نصف قرش صدئ في سوق الكتاب ، ولكنه لم يصدقها ... إذ كان واثقاً أنها لم تنطق بهذه الكلمات إلا في لحظة غضب أنثوي أحمق ، وليقرر منذ تلك اللحظة بالذات البدء بمشروعه الروائي الملحمي ...

وكما هي كثيرة اللحظات المؤجلة في المدينة ، كذلك كانت هذه اللحظة التي بقي ينتظرها سبع سنوات بكاملها لتعود إليه في هذه الليلة بالذات ولكن في لحظة لم يكن ينتظرها فيها ، فقد كان رأسه منتفخاً ببضع زجاجات من البيرة وقدحين من النبيذ وأقداح لا تحصى من العرق ... ورغم كل ذلك الخليط من المشروبات الوطنية الممتزجة بأحاديث مملة لا تنتهي حول قضايا وطنية حساسة لا تنتهي ... استطاع أن يمسك بالقلم ويخط على قطعة الكلينكس الأسطر الأولى من الملحمة ...

عندما وضع رأسه في السرير ثانية أخذ يفكر من جديد في أحلام جيله ، هل تستحق هذه الأحلام حقاً أن تسجل في ملحمة ما ... ولكن أي سؤال أحمق هذا ... هل ثمة أحلام لا تستحق أن تعيش في الملاحم ... ؟ ربما ... فجيله في الواقع كان متواضعاً للغاية في أحلامه مقارنة بذلك الجيل الذي سبقه والذي لم يدع حلماً في العالم إلا وحمله معه إلى القبر ...

لقد حلموا بكل شيء على الإطلاق ... أرادوا أن يوحدوا البلاد ويحرروها ... أو العكس لا فرق ... أرادوا الانتصار على الديكتاتوريات العسكرية ... نادوا بالعدالة والمساواة والديمقراطية الشعبية ... وخاضوا في سبيل ذلك مستنقعات لا متناهية من الدم والدموع ... لكنه لم يكن جيلاً سعيد الحظ ... فهو رغم كل الكلمات الكبيرة والجميلة التي حملت أحلامه مضى في النهاية مخنوقاً بها وهو يحلم في لحظاته الأخيرة بحفنة من الأمل الشاحب ...

ربما من هذه النقطة عليه أن يبدأ ملحمته ... فهو يدرك أن الأمور في المدينة كانت اشد فظاعة من أن تحتمل حتى مثل هذا الأمل الشاحب ... فأية أحلام تنتاب جيله اليوم ... أنهم يلهثون وراء من يهبهم ساعات من العمل ، وفي الترجمة الحرفية ذلك يعني ساعات من الحياة ... يختبئون في معابدهم وطقوسهم وأعراقهم ، حيث بدت الحقيقة تنتظرهم هناك فحسب ... يبحثون عن جحور ليتناسلوا فيها ، بغض النظر عن معنى استمرارية مثل هذا النسل في تاريخ ما بعد الحداثة ، أنه جيل يحلم بالهروب دون رجعة ... لم يدعوا باب سفارة أو قنصلية أو حتى دبلوماسي قادم من جزيرة تائهة في المحيط إلا طرقوه ... نعم أنه جيل الهجرة ... لم يحدث يوماً أن تملك هاجس الهروب مثل هذا الحشد الهائل من سكان المدينة ... فهل يبدأ بتدوين سيرة الهجرة ... ولمَ لا فتاريخ المدن الزائلة كان غالباً ما يخط تخومه على ضفاف الهجرة ... لابد أنها ستكون ملحمة خالدة يشهد لها الغريب قبل القريب ... وعندها فقط سيحجز جواز سفره إلى ابعد نقطة في العالم عن هذه المدينة الضائعة ...

ولكنه عندما استيقظ في الصباح لم يتذكر شيئاً من ملحمته ، وبرقة بالغة حمل قطعة الكلينكس ورمى بها من النافذة ، ليطأها شخص عابر خرج لتوه من الجامع ، يبحث عن ساعات من الحياة وفتاة يعبث بنهديها وبوابة مفتوحة للرحيل .

***

الكلب ... السافل ... ابن القحبة*

كم كانت فرحته عظيمة باكتشافه هذه الشقة الرخيصة ، ثلاثة أشهر كاملة وهو يبحث عن مكان يختبئ فيه من رياح الشتاء القارس ، حتى أضناه التعب متنقلاً من نزل إلى آخر ، ومن ضيافة صديق إلى آخر ، حتى وجد أخيراً ضالته . بناء على الهيكل لم يستكمل منه سوى طابق أرضي ، يتألف من شقتين متجاورتين ، الأولى كانت تقع على يمين المدخل ببضعة أمتار ، سكنها على ما يبدو شخص أعزب آخر ، أما شقته فقد انتصبت في مواجهة المدخل تماماً ، حيث يستطيع بواسطة العين السحرية أن يرى الساحة المحيطة بالبناء كاملة ، والأهم من ذلك هو أن جغرافيته الخاصة تلك ، مكنته وبصورة رائعة من الإحساس بحمى الرياح في الخارج التي لا تفتأ تضرب بوابته ، والتي طالما كرهها وسوف يكرهها إلى الأبد .

لفرط فرحته بالشقة ، لم يخرج منها الأسبوع الأول على الإطلاق . فبعد أن ملأ ثلاجته بقطرميزات المؤونة التي أحضرها معه من الضيعة ، وأشترى ما يكفيه من البطاطا والخيار والبندورة والثوم ، ورصف على رفوف المطبخ أربع زجاجات عرق وزجاجة من زيت الزيتون ، أصبح في مقدوره أن يستسلم لإلهامه القصصي ، ويسترسل في تفاصيله الأدبية المشبعة بالسياسة ، والتي لم تكن تثير اهتمام أحد بأي حال من الأحوال . وربما كان سيستمر على هذه الحالة طويلاً لولا الرياح ...
في اليوم السابع ، وفي اللحظة التي قرر البطل فيها ـ وهو لاجئ سياسي يعيش في إحدى أزقة الشانزليزيه البائسة الاعتراف بإفلاس التيارات اليسارية المعاصرة ، صفقت الرياح الباب بشدة أيقظته من أوراقه وبطله واعترافاته ... أحس بالذعر للوهلة الأولى ، تلفت حول نفسه باحثاً عن شيء ما ، وعندما لم يدرك ما هو شعر

بنوع من الانقباض ... عب جرعة من العرق الساخن في جوفه ، وأخذ يمتص سيجارته منصتاً إلى الضربات المتصاعدة في إيقاع مرعب ، مفكراً في الآن نفسه بصياغة كلمات الاعتراف المؤلم ومصير البطل ...

فجأة أمتد إلى سمعه صوت آخر ، لم يستطع أن يميزه في البداية ... ولكن ما إن توجس منه ... حتى سارعت عشرات الافتراضات إلى رأسه ، ودفعته إلى إفراغ الكأس بحركة واحدة .

حاول أن يتذكر ... لكن عبثاً ... دون فائدة ... فهو لشدة سعادته لم يتنبه أصلاً لوجود أي ورقة بجانب الباب ، فمن أين له أن يتذكر أي عفريت وسم عليها . قد تكون مجرد إعلان رخيص عن منظفات البلاليع ، وقد تكون نعياً فحسبُ ، أو دعوة لمعرض فني أو مهرجان جماهيري ... ، لكنها قد تكون صورة ... وتلك ليست كارثة في حد ذاتها ، فمن يدري أي مسخ تافه جلس في داخلها ، راقصة أم ممثل نرجسي أم عازف قيثارة ... وفي أسوء الأحوال قد لا يكون أكثر من مرشح إلى البرلمان أو غرفة التجارة ، ولكن ... ولكن ماذا لو كان هو ولا أحد سواه من يتربع عرش الصورة ؟ عندها ماذا سيكون مصيره ؟

سقط رماد السيجارة المنطفئة فوق ركبتيه ، وامتدت يده إلى الزجاجة دون شعور وملأت كأسه حتى آخرها ، أما الرياح التي طالما كرهها فلم تتوقف لحظة عن قرع أجراس الهلع في قلبه . أشعل سيجارة جديدة دون أن يحول نظره عن الباب ، وللحظة كاد يتوجه نحوه .. يفتحه ويلقي نظرة على الورقة المهتزة التي ربما لا تستحق منه كل هذا الاضطراب والخوف ، لكن ما إن خطر له الاحتمال الأكبر الذي يشير إلى أن صورته وحدها ستنتظره في الخارج ، حتى عاد وتقوقع على نفسه متسمراً في كنبته ، فماذا لو انتشلتها الرياح ورمت بها بعيداً في اللحظة ذاتها التي سيفتح فيها الباب ، عندها لن يشك جاره الذي لابد وأن يستمع لصوت القفل للحظة بأنه هو من فعل ذلك ، ولكن ... ولكن هذه الرياح الحاقدة سوف تقتلع الصورة أجلاً أم عاجلاً ، وسيكون هو المتهم الوحيد !!

من سيصدق بأن الرياح هي من قامت بذلك ، وكل الدلائل تشير إليه وحده : منذ أسبوع نزل في الشقة ، وفجأة يستيقظ جاره الوحيد ويجد الصورة المعلقة إلى جداره مختفية ، لن يحتمل الأمر أكثر من مخابرة قصيرة وموجزة ، أو تقرير مختزل بخط لامع وخجول لتنتهي حياته وأوراقه ولاجئوه السياسيين حتى قبل أن يعترفوا بكلمة . في جميع الأحوال إذن الشبهات ستكون موجهة نحوه ، وعلى عاتقه وحده الآن - أكثر من أي وقت مضى - يتوقف مصيره ... وعليه أن ينقذ الصورة بأي ثمن ، وينقذ نفسه معها ...

انتفض من مكانه كالمسعور وأخذ يقلب دروجه بصورة هستيرية منتزعاً منها كل الأشياء الدافئة التي كانت تحتضنها ... فتطايرت ذكرياته في الفراغ ، وسقطت معها الأمكنة والأصدقاء والعشيقات والأغنيات والأنخاب على الأرض الباردة ... وتكسرت . في زاوية الغرفة انهار أبطاله ... دون أن يستطيع أحد منهم الدفاع عن اعترافاته في حمأة هذا الحصار الذي أطبق عليهم ، ولم تعد تعني كلماتهم شيئاً ... خلف عتمة المكتب اختنقت أشعاره وهواجسه ، فوق سطح المدفأة احترقت أحلامه ، وبين أصابعه كانت تتمزق أحاسيسه نحو العالم ونحو نفسه ...

بدأ العرق ينضح من مسامه ، ويداه ترتجفان بعصبية لم يألفها يوماً ، ومسحة من الجنون والتعب اعترت وجهه ، دون أن يجد أي أثر للكرار اللاصق ... الذي سيكتسب منذ هذا اليوم أهمية استثنائية في حياته ، ولن يفارق جيوبه حتى الموت . لم يكن أمامه مفر من الخروج والبحث ... غير أن ما شغل ذهنه أكثر من احتمال الإصابة بنزلة صدرية في هذا الصقيع ، وأكثر من اضطراره للمضي بعيداً في أنحاء المدينة ، فيما لو كانت مكتبة القرطاسية الوحيدة في الحي مغلقة ، كان خوفه من ألا يسعفه القدر ، وتفوته فرصة إنقاذ الصورة - وحياته بطبيعة الحال - إذا لم تستطع الصمود أمام حمى الرياح لحين عودته .

فكر في البداية أن يملأ كأساً من البصاق يدعم به الصورة إلى حين عودته ، لكنه استبعد الفكرة أمام صوت الرياح ، التي لابد أن تجعله يجف قبل خروجه من نهاية

الشارع ، وخطر له أن يستنجد بحيواناته المنوية الشرسة في الإطباق على تلابيب الصورة اللعينة ، غير أن جميع محاولاته في دفع عضوه البائس الذي لم يواجه ظرفاً أكثر سوءاً وإحراجاً في يوم من الأيام للامتثال باءت بالفشل من جراء الاضطراب والرعب والارتباك .

وفجأة صعدت إلى رأسه فكرة بدت له من العبقرية التي لا تجاريها عبقرية بيل غيتس نفسه . ارتدى بنطاله بسرعة ، ودك قدميه في حذائه بعد أن لفهما بجوربين من لونين مختلفين ، ووضع معطفه فوقه وخرج . توقف بعد خطوات واستدار ببطء نحو الجدار ، فرمقته نظرات متحجرة أكدت جميع هواجسه ومخاوفه بلحظة واحدة . تقدم من باب جاره واثقاً من أنه في الحال سوف ينهي هذه المهزلة الكارثية ، وقرع الجرس ...

عندما لم يفتح الباب أحس باليأس يتسلل إليه من جديد ، لكن ما إن أصاخ قليلاً حتى تناهت إليه أصوات خافتة تأتي من الداخل ، فقرع الجرس مرة ثانية وثالثة بتصميم متزايد ، دون أن يفهم ما الذي يؤخر هذا الجار ، وخطر له للحظات أن كل ذلك جزء من مؤامرة محكمة تحاك ضده فحسب !!

لكن لماذا ؟ ما الذي فعله ؟ ثلاثون عاماً وهو يتعلم كيف ... و عمَّن ... وماذا يكتب ، وكيف يبتسم ويصفق ويرضخ ... وبماذا يحلم ، دون أن يسبب الإزعاج لهم ... ثلاثون عاماً وهو يدفن أفكاره ومبادئه وثورته ، ويتعلم فن الممكن في عوالم المستحيل من أجلهم . فلماذا قرروا أن يوقعوا به ؟

في هذه اللحظة فتح الباب وأطل الجار برأسه الحليق من خلفه ، وهو يرمقه بنظرات شرسة غاضبة ، أما هو فلشدة غبطته لم يستطع أن يتفوه بكلمة ، وبقى واقفاً أمامه للحظات كالأبله ، فما كان من الجار إلا أن بادر الى سؤاله : نعم ؟
أجابه بصوت مضطرب ولهجة متلعثمة : أنا ... هنا ... جارك ... منذ أسبوع ...

- أهلاً وسهلاً ... أمر ؟
- ما عاذ الله أن يأمرك أحد يا جار ... لكن في الحقيقة ... القضية كبيرة ... ولو لم تكن كبيرة لما أزعجتك أبداً ... في الحقيقة ...

وهنا قاطعه الجار :

- لا تقل لي أن زلزالاً جديداً سيضرب المنطقة ... لا شيء سيجعلني أبات في الشارع في مثل هذه الليلة .
- لا ... لا ... القضية أكبر من أي زلزال ...

بصوت خافت :

- هل شرطة الآداب في الجوار ... ؟

أطل الجار برأسه إلى الداخل صارخاً :

- فدوى ألبسي بسرعة ...
- لا ... لا يا جار أنا لا أحكي عن الشرطة ...

عاد الجار برأسه إلى الداخل مرة أخرى وصرخ بقوة أكبر :

- فدوى اشلحي ملابسك ... أقصد ... خليك مكانك

ليخرجه من جديد وقد نفد صبره تماماً :

- ماذا هناك ... أحك

أشار الكاتب بإصبعه نحو الصورة هامساً له :

- انظر ... الصورة ... سوف تقتلعها الرياح إن لم نفعل شيئاً ... لقد بحثت في كل مكان عندي ولم أجد ما ألصقها به ... فكرت أن أستعين بك ... فهل فهمت عن أي كارثة أتحدث ... ؟
- نعم .... إنها بالفعل كارثة .... انتظر لحظة ... سأرى ماذا عندي ...
- حسناً ... وأنا سأسندها ريثما تعود
- نعم نعم ... اسندها ... إياك أن تفلت منك ...

أغلق الجار الباب وراءه وعاد إلى الداخل ، فسارعت فدوى إلى استجوابه :

- ماذا هناك ... اشلحي ... البسي ..

- أولاد القحبة ... لم يتركوا وسيلة للإيقاع بالناس إلا وعمدوا إليها ... ابن الكلب يحاول اختباري ... يريد لاصقاً يثبت به الصورة ...
- أي صورة ... ؟
- أي صورة .... صورة البقرة .... الصورة المعلقة على حائط بيته ...
- يا للسفلة ... هل يعقل أن تصل الأمور بنا إلى هذا الحد ...
- وصلت منذ زمن بعيد ... كل ما في الأمر إننا اعتدنا عليها ، ولم نعد نفكر فيها ... اتركينا الآن من ذلك ولنبحث عن لاصق لهذا الكلب الواقف في الخارج ...

وبدأ الاثنان في تقليب المنزل بنفس الطريقة الهستيرية التي انقلبت فيها كل الأشياء في منزل «الكلب» الواقف في الخارج قبل قليل . ويبدو أن القدر أيضاً كان واحداً ... فلم يجدا أي آثر لأي نوع من أنواع اللاصق بعد أن أضناهما التعب والخوف والاضطراب . فتساءلت فدوى مرتعدة :

- ما الذي سنفعله ... ؟
- وماذا نستطيع أن نفعل ... سأذهب وأشتري لابن القحبة لاصقاً .

كان يقف أمام الصورة يحدق فيها والرياح تصعق ظهره بقوة ، وربما هي المرة الأولى التي يرى فيها ملامحه بهذه الدقة ، ليكتشف بأن له ككل البشر عيون وأنف وفم وآذان وجبهة وشعر ... وفي ظروف أخرى كان من الممكن أن يصفعه بكل بساطة ، وأن يترك أثار أصابعه الخمسة على وجنته ، أو أن يبصق فيها ويمرغها بالتراب تحت قدميه ... مما جعله يشعر بالحنق والاختناق ، فهو بدل ذلك يقف كعبد وضيع من عصر سبارتاكوس أمام صورته ، يمسك أطرافها القذرة كيلا تجرفها الرياح .

الشيء الوحيد الذي خفف من آلامه كان إحساسه أن الأمر سينتهي قريباً ، ولن يستطيع جاره بعد الآن أن يشي به ، وسيعود منذ الصباح الى حياته الاعتيادية . لكن آماله تلك تبخرت في الهواء عندما خرج الجار من منزله ومسحة من الوجوم تخيم

على وجهه ، وأخبره أنه لم يجد لديه للأسف الشديد لاصقاً ، وأنه سوف يمضي بنفسه ويشتريه حالاً ... ولكن هيهات ... بدأت الخواطر والكلمات تتداخل وتتصارع بينهما .

«الكلب يعتقد بأن هذه اللعبة سوف تمشي علي» :

- لا ... لا ... لا يمكن يا جار ... أنا من سيذهب ويحضر اللاصق ...

«صرت شهماً الآن يا سافل » :

- لا يمكن ... أنت جديد في الحي ولا تعرف من أين تحضره ... أنا من سيذهب ...

«فلتروح روحك يا ابن القحبة» :

- يا جار ... هل يعقل أن تترك فدوى وحدها وتذهب وراء لاصق ... لا ... مستحيل أن أسمح لك بذلك ...

«القواد يريد أن يبقى مع فدوى إلى حين عودتي» :

- لا تدع هذا الأمر يقلقك يا جار ... فدوى ترتدي ملابسها و سوف أوصلها إلى بيتها في طريقي ...

«السافل يعتقد أنه بهذه الحجة سوف يوقعني» :

- ولماذا تتعب نفسك ... أنا في كل الأحوال كنت عازماً على شراء بعض الأغراض من السوق ... فأستطيع أن أوصل فدوى في طريقي .

«الكلب لا يكفيه توريطي مع الصورة ، بل ويريد الحصول على فدوى كذلك» :

- ومن قال لك بأنني لم أكن أنوي الذهاب إلى السوق ... يمكنك أن تلقي نظرة على ثلاجتي حتى ... لقد نفد لدي كل شيء ... الخبز والجبن واللبن والزيتون والبيض والبصل والليمون و البطاطا ...

«نعم نعم المجاعة في الصومال وصلت إلى بيتك يا عكروت» :

- لا توجد مشكلة ... الجار للجار كما يقولون ... سجل كل ما تحتاجه وسأحضره لك معي .

«ونعمة الجار ... اللعنة على كل الجيران في العالم» :

- وهل يجوز ذلك يا جار ... أنت لم تزل ضيفنا في الحي ... ومن واجبي أنا أن أحضر لك كل ما تحتاجه من السوق .

«يا لضيافتكم الكريمة أيها الأوغاد» :

- صدقني ... لن تستطيع أن تحمل كل ما أحتاجه ... فالمنزل جديد و فارغ ... لا كؤوس ولا صحون ولا مسامير ولا رفوف ...
- إذن أنت لن تستطيع أن تحضر حاجياتي مع كل هذه الأشياء التي ستشتريها .
- وهل ستستطيع أنت ؟
- نحن اثنان ...
- ونحن اثنان ...
- من أنتم؟
- أنا وفدوى ... ألم أقل لك أنني سأوصلها .
- ومن قال لك أن فدوى تقبل من حضرتك أن توصلها ...

وهنا نفد صبرهما تماماً ، وأرتفع صوتاهما :

- اسمع أنا من سيذهب .. أنا الذي اكتشف الصورة أولاً .
- نعم لكنني أنا المسؤول عنها ... فأنا أسكن هنا قبلك ولن يمنعني شيء من لصقها ...

وهكذا بعد أن تيقن كل منهما بصورة لا تدع مجالاً للشك أنه حيال مؤامرة رهيبة تستهدف القضاء عليه ، ظهرت من خلفهما فدوى التي نفد صبرها كذلك ، وهي تنصت إلى حوارهما من وراء الباب ، وتقدمت إليهما باقتراح بسيط في أن يمضوا ثلاثتهم معاً إلى السوق ، ورغم أن الاقتراح بدا أكثر من رائع لهما ، وكمنفذ حقيقي للخروج من الأزمة التي تجتاح حياتهما ، غير أن المشكلة الجديدة التي تحتم عليهم مواجهتها كانت حول من سيقف ويثبت الصورة إلى حين عودتهم . ومن جديد وجدت فدوى الحل . وما أن مضت بضع دقائق حتى عاد الجاران من خارج البناء بصحبة شخص ثالث ، وطلبا منه بلهجة حاسمة أن يحمي الصورة من الرياح حتى يعودا ، وما كان من ذلك الشخص إلا أن خشع إلى رغبتهم من غير تردد وهو يكرر كلمة واحدة : حاضر ... حاضر .

في الشارع أخذت الأمطار تهطل بغزارة ، بينما كان الثلاثة يمشون بخطى ثقيلة ، والصمت يغلف ألسنتهم وأرواحهم ، والرياح تصفر وتعول حاملة عشرات الصور معها ، صور شبيهة تماماً بتلك المعلقة على جدار بنائهم ، وقد خطر لهم جميعاً احتمال أن تكون مجرد واحدة من بين هذه الصور المتطايرة لولا هذا «الكلب السافل ... ابن القحبة ... » الذي يعيش في الجوار ...

لم يستطع أحد منهم أن يفهم ما الذي يفعله هذا الحشد الهائل من الناس في ليلة شيطانية كهذه . فالحياة كانت تضج بالمارة ، وكأنها تتابع طقوسها التي اعتادت ممارستها في أيام الصيف الطويلة الحارقة ، عندما تدفع حشود المدينة للخروج من جحورها الخانقة ، لتزحف كآلاف الجرذان في الشوارع ، وهي تبحث عن نسمة عابرة ، تعبر من خلالها عن امتنانها اللامحدود لهذه الحياة .

دون أن يتوقفوا طويلاً أمام هذه الظاهرة العجيبة ، بعد أن اعتادوا جميع الظواهر العجيبة التي كانت تتحول يوماً بعد آخر إلى تقاليد فلكلورية راسخة ، وما عاد ثمة ما يستحق التوقف عنده على الإطلاق ، اقتحموا أحد الدكاكين وهم مصممون على إنهاء هذه المهزلة ، ولكن قبل أن ينطقوا بكلمة واحدة ، أجابهم صاحب الدكان بلهجة تحمل مزيج من الغضب واليأس والمواساة :

- لا يوجد .
- ولكن ...
- والله العظيم لا يوجد ... لقد نفدت جميعها ... لم يعد عندي سوى ... ما بالكم لا تصدقون ... وهل تعتقدون أنني أجرؤ على إخفاء شيء كهذا ...
- اسمع ... خذ ما تريد من النقود ... لن نجادلك ... ولن ننسى معروفك ...

حاول عجوز يقف وسط عشرة أشخاص داخل الدكان أن يستجديه .

- ما الذي تقوله يا شيخنا ... هل تريد أن تخرب بيتي ... لقد بعت كل ما أملك ... كل ما من شأنه أن يلصق بعته ... حتى الإسمنت نفد .. والعجين نفد ...

- قل لنا على الأقل أين يمكن أن نجد ... منذ ساعتين ونحن نجوب المدينة ... أقدامنا لم تعد تحملنا ...

توسلت إليه فتاة في العشرين من عمرها .

- لقد اتصلت بكل التجار الذين أعرفهم ... الحال من بعضه يا ناس ... لم يعد لدى أحد شيئاً ... عودوا إلى بيوتكم وتدبروا أموركم حتى الصباح ... وغداً لابد أن تتبدل الأمور ... الحكومة لن تدعنا في مثل هذه الأزمة ... أنتم تعرفون حكومتنا ...
- الحكومة على الرأس والعين يا أخانا ... ولكننا في جميع الأزمات ... أحم ... العابرة طبعاً ... كنا نجد حاجتنا في السوق السوداء ... فما الذي حدث الآن ... أم أنكم تنتظرون حتى منتصف الليل لتبدؤوا البيع ...
- قولوا لنا فنعود ...
- نعم سنعود من كل بد ...
- وسندفع لكم ما تريدون ...
- لم نعد نقوى على الحركة ...

تململ صاحب الدكان في مكانه أمام تيار الأصوات المتعالية ، وأحس بالقبضات تقترب من عنقه ، فحاول أن يهدئ من روعهم مجدداً :

- يا جماعة ... عن أي سوق سوداء تتكلمون ... هل تعتقدون أن أحداً من التجار خطط لمثل هذه الليلة ... بل من منكم خطر له مثل هذا الكابوس ... أقصد ... أنا ...

وهنا استدار الجميع وبدؤوا ينسحبون وصرخات البائع تستجديهم وتطلب عفوهم :

- يا جماعة ... صدقوني ... لم أقصد ... إنها زلة لسان لا أكثر ... أنا وطني مثلكم ... صدقوني ... لقد خضت جميع حروبنا ... صدقوني ... لم أقصد ما قلت ... لم أقصد ... والله لم أقصد ...

خرج الجميع ومسحة من الوجوم والقنوط تعلو وجوههم ، وكانوا جميعاً يفكرون بمصير البائع : «المسكين لولا «الكلب ... السافل ... ابن القحبة» لما كان مضطراً

إلى كل هذا التذلل والتضرع» ، دون أن يعلموا أنه سقط بعد خروجهم ببضع دقائق صريعاً بنوبة رعب .

– والآن ماذا سنفعل ...

تساءلت فدوى .

لحظات طويلة من الصمت مرت ، ونظرات الكاتب وجاره تتقاطعان بشراسة حاقدة ، تحاول أن تفهم إلى أي مسخ على الإنسان أن يستحيل ، كي يكون بمثل هذه القسوة والدناءة تجاه الآخرين . وعبرت ذهن كل منهما فكرة التخلي عن كل شيء والعودة مهما كلف الأمر . لكن كما في كل مرة اعتقد كل منهما في النهاية أن الأمر لا يستحق المجازفة ، فالكاتب كان مصمماً أن يعيش ليؤلف في يوم ما ملحمته عن «جنون السلطة» ، والجار لم يكن مستعداً للتضحية بـ «سعادته» في سبيل الحثالة التي تعيش من حوله ، والتي يكمن جوهر حثالتها حسب رأيه في رضوخها وانصياعها لكل شيء ولأي شيء . وهكذا تصالحت النظرات وقرر الاثنان متابعة اللعبة حتى النهاية .

– الشوارع تغص بالناس .

علق الكاتب ,

– لابد أن نجد شيئاً ما في مكان ما ,

رد الجار بثقة ,

– دعونا نحاول عند الأقارب ...

– نعم عند الأقارب ... لابد أن يكون لدى أحدهم شيء ما .

وقبل أن يتابعا جدالهما ظهر من وسط الحشد المحيط بهم أحد هؤلاء الأقارب بالفعل ، ولكنه في الواقع لم يكن ينتمي إلى أي منهما ، إذ أندفع نحوهما كثور هائج صارخاً :

– فدوى ... ما الذي تفعلينه هنا في مثل هذا الوقت ... ومن هؤلاء الذين برفقتك ؟

«هذا ما كان ينقصنا» عبرت الفكرة في رأسيهما سريعاً ، غير أن فدوى استطاعت تدارك الموقف بسرعة وسهولة فائقة إذ أجابت قريبها بثقة حازمة :

- وما الذي تظنني أفعله ... إنني أبحث كالجميع وأسأل الجميع ... أم أنك تريد من عمك الكهل أن يقوم بذلك ...
- أنا أسف لم أقصد شيئاً ... لكنني عندما شاهدتك كدت أفقد صوابي ... لعنة الله على الشيطان الرجيم ... الظن إثم من عمل الشيطان ... هيا فلنبحث معاً .
- هيا

وهكذا مضت فدوى مع قريبها دون أن تودعهم بكلمة ، فنظر الجار الى الكاتب بغضب :«ها هي ذي فدوى تذهب بسببك أيها الكلب السافل ابن القحبة » ، وبادله الكاتب النظرات ذاتها فوراً :«هل تعتقد أن مثل هذه اللعبة سوف تمر علي أيها الكلب السافل ابن القحبة » .

- ذلك أفضل ... فالبرد شديد هذه الليلة .

عقب الجار على ما حدث محاولاً ألا يبدي اهتماماً .

- ألا يعرف أحد من أقاربها عنك شيئاً ... ؟

سأله الكاتب .

- لا ... لا أحد .
- أتخجل منك أمامهم ؟
- وهل ترى في ما يعيب حتى تخجل ؟

سأله بنوع من الغضب .

- أنا شخصياً لا أرى ... ولكن الناس أجناس ...
- نعم الناس أجناس ... هذه هي المسألة .

هز رأسه موافقاً .

- إذن هم يرون فيك ما يعيب .
- لا ... لا شيء معيب في أن تكون من الساحل ... أو الجنوب أو الجبل ... ولكن ذلك يجعلك من جنس مختلف عن الآخرين في بلادنا ... نحن بلاد تكره الخلطة ...

وهنا شعر بصراحة زائدة غير ضرورية تقتحم كلماته فاستطرد :

- طبعاً أنا لا أقصد المس بالوحدة الوطنية ... فهي موجودة والحمد لله ...

- طبعاً ... الوحدة الوطنية عندنا ... ولا في الصين

أكد الكاتب

- أكيد ... ولكن الوعي ... المشكلة كلها في الوعي ... للأسف البعض لا يحس بنعمة الوحدة الوطنية التي نعيش في ظل عطاءاتها...
- الحمد لله إننا لا نشكو من أية مشكلة في الوعي عندنا ... فالرفاق في المنظمة الحزبية لا يتركون مناسبة ... من عيد المولد النبوي وحتى الفلانتاين إلا ويؤكدون فيها على ضرورة التلاحم الوطني والتسامح بين الجميع ...
- ومن قال لك أننا نعاني من مشكلة وعي ... أنا قلت البعض .. البعض .. لا تحرف كلامي رجاء
- هل تقصد فدوى ؟

وهنا انتفض الجار مدافعاً عن عشيقته :

- فدوى ... لا ... ما الذي تقوله ... أنت بعينيك رأيتها في بيتي ... وسمعتني بأذنيك وأنا أقول لها أن تلبس ... أليس ذلك دليلاً قاطعاً على تسامحها ووعيها الوطني العالي ...

هز الكاتب رأسه بالنفي متابعاً طعناته باستمتاع كبير، مدركاً أن أفضل طريق لتأكيد وطنيته المفرطة هو التشكيك في الآخرين :

- ورغم ذلك أهلها يرفضونك ... يبدو أن فدوى لم تقم بواجبها التربوي والسياسي تجاههم ...
- فدوى ... أحلفك بالله ألا تظلمها ... أنت لا تعرف ما تعانيه في سبيل ذلك ... صدقني أنها أحياناً لا تنام ...
- أحياناً ...؟
- لا ... دائماً ... أنها لا تنام ... صدقني ... ولن تنام ... صدقني لن يغمض لها جفن قبل أن تنجز مهامها التاريخية ...

تابع الاثنان سيرهما الثقيل وسط ركام الصور المتطايرة والبرد والمطر والرياح ، وصمت أشد ثقلاً يلفهما برفقة «الكلب ...السافل ... ابن القحبة» . شعور من

الغبطة كان يعتري صدر الكاتب ، وإحساس بنشوة انتصار جامح يداعب روحه ، فقد استطاع أن يثبت ولاءه بطريقة يعجز عنها حتى أعتى أبطاله وأشدهم دهاء ومكراً وثقافة ، وفي ظروف أكثر مأساوية من تلك التي رماهم في خضمها طيلة سنوات إبداعه . في الوقت الذي أخذ يتصبب العرق فيه من جميع مسام الجار البائس ، بعد أن أدرك حجم الكارثة التي أوقع فدوى فيها ـ لقد أحس أن الفتاة التي يكن لها أعمق المشاعر ولا يتصور حياته لحظة من دونها ، يكاد يفقدها ... كان عليه أن يرقع ما قام بتمزيقه ، والتكفير عن جريمته بطريقة ما ، لكن كيف ... كيف ... هل يجري في الشوارع ويلملم أشلاء الصور المبعثرة ، عندها لن يشك أحد فيه ... ولن يستطيع أحد أن ينظر في عينيه ... ولكنه هل سيستطيع هو بعد ذلك النظر إلى نفسه ، أو إلى عيون فدوى ... لا ... التضرع إلى شخص واحد ... إلى كلب واحد لا شيء ، أمام التلوي كحشرة قذرة أمام الجميع ـ كما يفعل الخطباء الدجالون عادة ـ فذلك أمر آخر لا يستطيعه هو .

توقف الكاتب فجأة محاولاً الاستفسار عن الجهة التي يمضون إليها ، فبرقت الفكرة في رأس الجار ، وكأنها وحي من السماء ، وشعر بشيء من الانفراج وهو يجيبه بحماس كبير :

- سوف نطرق جميع أبواب الأقارب الذين أعرفهم ... ولن نتوقف ... لن نتوقف للحظة قبل أن نجده ...

«متى ستتوقف عن المحاولة أيها الكلب ... أقاربك ... أعرف أي أقارب لديك ... إنهم عقارب سافلة مثلك يا ابن القحبة» فكر الكاتب مستاء ومن ثم سأله بلهجة باردة متصنعة :

- ولماذا أقاربك ... وهل يجوز أن تزعج أقاربك في مثل هذا الوقت ...
- صدقني لا يوجد أي إزعاج ... أنت لا تعرف أي ترحيب سوف نلاقي عندهم...
- لا ... لا لا يمكن أن أسمح بذلك ... فأقاربي يسكنون هنا ... في الجوار ... وحالاً سنتوجه إليهم

- مستحيل ... لا تحاول أبداً ... لن نتحرك من هنا سوى باتجاه أقاربي ... هيا

ومن جديد بدأ الكاتب في مراوغاته المنطقية الماكرة :

- اسمع ... أقول لك أن أقاربي يسكنون غير بعيد من هنا ... وأنت تقول لي أقاربي أنا ... هل تريد بحجة المواد اللاصقة أن تقضي استراحة لديهم وتطمئن على أحوالهم وتشرب كوباً من الشاي ... ؟
- أنا ... ما الذي تقوله ؟

صرخ الجار مذعوراً وهو يكاد يختنق

- ألا ترى أن الوقت لا يسير في صالحنا والمواد تتناقص ... ورغم ذلك أنت ترفض أن تسير معي بضعة شوارع ... وتفضل أن تسوقنا في طول المدينة وعرضها ... ومن أجل ماذا ... أقاربك ... أذهب إلى جهنم أنت وأقاربك ... هل هذا وقت الزيارات الخاصة ...
- صدقني أنا لم أقصد ... أنا أردت المساعدة لا أكثر ...
- إن كان بودك المساعدة فعلاً ... فلنمشِ بسرعة إليهم...
- كما تريد ... فلنمشِ إليهم... كان بودي المساعدة ... فلنمشِ .

بعد هذه الكلمة سؤالان كبيران ومختلفان تماماً قفزا إلى رأس كل منهما . فالجار كان يتساءل عما بوسعه فعله بعد كل ذلك من أجل التوبة ، وحبيبات عرق بارد تسيل من ظهره ، وتكاد رئتاه تنطبقان على صدره . أما الكاتب الذي لمعت في عينيه مسحة من البلاهة والضياع فقد شغل ذهنه سؤال أشد بساطة وتعقيداً : إلى أين **!!؟؟**

فالكاتب لم يكن لديه في هذه المدينة الكبيرة أي أقارب في الجوار أو البعيد **!!** .
إلى أين ...؟ أيعقل أن يمضي إلى أصدقائه برفقة هذا «الكلب ... السافل ... ابن القحبة» ويوقع بهم ، لا ... فهو رغم كل شي ليس خائناً ، عدا عن أنه معروف بينهم كثوري متمرس في المعارضة ، فكيف يمكن أن يقتحم عزلتهم في منتصف الليل ويسألهم بكل بساطة ووقاحة عن مادة لاصقة لسيادة الصورة . من سيقرأ

حرفاً مما يكتبه بعد ذلك ، من سيتعاطف مع أبطاله في معتقلاتهم ومنافيهم وثوراتهم ، وأي مثل أعلى سيقدم للأجيال القادمة ... لا ... كل شيء إلا الأصدقاء ، فهم كل ما تبقى له ... الدائرة المغلقة الوحيدة التي يستطيع التنفس في داخلها دون خوف ، وفيها ينفث غضبه وحقده وثورته .

لكن ما دامت هذه الحشود جميعاً في الشوارع ، فلابد أن العديد من المنازل فارغة في وقت عصيب كهذا ، فلمَ لا يقرع أجراسها ويثبت من جديد لهذا المسخ أنه جدير بـ «الحياة الحرة الكريمة» في هذه «البلاد» . وعلى الفور بدأ بتصيد النوافذ المعتمة وطرق أبوابها الواحد تلو الآخر ، مبتعداً شيئاً فشيئاً عن النقطة التي انطلقا منها حتى لا يدع الشك يساور الشيطان الذي برفقته للحظة . وحتى في المرة الوحيدة التي أخطأ فيها ، وفتحت له امرأة عجوز الباب ، أعتذر لها ببشاشة عن الإزعاج ، واستطاع تبرير موقفه بنسيانه المكان ، فهو لم يقم بزيارة هؤلاء الأقارب العزيزين على القلب منذ أمد بعيد . حينذاك بدأت تلوح بارقة من الأمل أمام عيون الجار الغائرة ، واقترح بنبرة متوسلة حتى الدموع أن يحاولوا البحث عند أقاربه هو ، وما كان من الكاتب إلا أن وافق دون أن يكون واثقاً تماماً من اجتيازه امتحان الولاء للصورة ، لكن لم يكن ثمة مخرج آخر ، فمتابعة اللعبة على هذا النحو ستكشفها أجلاً أم عاجلاً .
أما الجار فشعر بنشوة عذبة لم يعش مثلها يوماً ، فدبت الحياة في أطرافه الذابلة ، وعادت الدورة الدموية تتدفق إلى وجنته . ومضى دون إبطاء إلى بيت جدته ، فهي لابد أن تكون نائمة في بيتها الآن ، لكنها سوف تفتح عينيها بمجرد توقفه أمام عتبة البيت ، فالجدة نومها خفيف جداً ، بل ويعتقد بعض أبنائها أنها لا تنام على الإطلاق ، إذ من المستحيل أن يدور حديث ما داخل جدران البيت دون أن تلم بجميع ملابساته وتفاصيله الدقيقة ، حتى وإن جرى في الثالثة ليلاً وعلى أصداء شخيرها الخشن . في حين كان لجرس الباب ولسبب يجهله الجميع أهمية خاصة في حياتها ، فما إن يقرع حتى تهرع مسرعة ملهوفة نحوه وكأنها على موعد مؤجل منذ عشرات السنين مع شخص ما ، ولعل هذا ما كان يجعلها تستقبل الجميع وعلى وجنتها تلوح ملامح الخيبة . أما أن يقرع الباب في منتصف الليل ليقف حفيدها أمامها بابتسامته

البلهاء ، وبرفقة رجل غريب ، مبللين كجرذين قذرين خارجين للتو من مجاري الصرف الصحي ، فهذه بالتأكيد إحدى الخيبات الكبيرة التي مرت في حياتها ، والتي صرحت فيها دون إبطاء صارخة في وجهه :

- أنت ... ؟
- نعم أنا ... هل كنت تنتظرين شخصاً آخر في مثل هذا الوقت يا جدتي...

أجابها الجار .

- وأنت قلتها ... ما الذي جاء بك في هذا الوقت ...
- اشتقت إليك ...
- أنت ... منذ ستة أشهر لم تدخل بيتنا ... تفضلوا ..

دخل الكاتب ومن ورائه الجار الذي أخذ يعتذر عن مجيئه :

- جدتي لا تؤاخذيني ... لولا المشكلة التي أنا فيها لما أتيتك ...
- لا تقل إنك تبحث عن لاصق ...
- كنت أعرف أنني سأجد لديك ...
- نعم ... كنت ستجد ... ولكنكم في هذه العائلة من طينة واحدة ... أنا آخر من تتذكرون اللجوء إليه ...
- جدتي لا تقولي لي ...

قاطعته الجدة :

- أي نعم ... لم يتبقَّ عندي أي شيء ... انهال الجيران علي منذ المساء ... وأعطيتهم كل شي ... من أين لي أن أعرف ما يجري في الشارع... حتى عمك و ابنه وأخواك لم يتبقَّ لهم شيء ... عادوا في الساعة العاشرة يسألونني ... بكوات ... ماذا أقول ... اجلسا سأحضر لكم الشاي ... اشعل المدفأة ... واخلعا ملابسكما وجففاها ...

مضت الجدة إلى المطبخ بينما قام «الصديقان» بتنفيذ تعليماتها التي كانوا أحوج ما يكونوا إليها ، وارتميا على الكنبة بعد أن تخدرت أقدامهما من البرد والسير والماء المتسلل إلى أحذيتهما ، وما إن عادت الجدة حتى بادرها الحفيد بالسؤال :

- وما حاجتهم جميعاً إلى اللاصق ...

- ما حاجتهم ... وما حاجتك أنت ...؟
- أنا لدي صورة ...
- ومن ليس لديه صورة ... عمك لديه أكثر من عشرة صور معلقة على غلق دكانه ... ولم يتذكر لصقها إلا بعد أن ضرب من ضرب وهرب من هرب ، أما ابن عمك فقد استدعوه إلى المؤسسة ... فهناك زرعوا جميع الشرفات بالصور في عيد النكبة ... والآن الصِق إن كنت تستطيع ... لكن المسكين فعلاً هو أخوك هاشم ... كان ماراً منذ أيام بالصدفة من الساحة عندما أجبروه على مساعدتهم في تثبيت الصورة الكبيرة حتى تهدأ العاصفة ، أرجو ألا تجرفهم إلى البحر ... شاهده جارنا أبو محمود وأخبرني ... المسكين لم يتوقف من حينها عن السعال ... والآن هذه الصورة ... لعنهم الله لم يبق مكان في المدينة إلا وعلقوا فيه الصورة ... لم يبق إلا أن يلصقوها على أطيازنا ...

كاد الاثنان للحظة أن ينفجرا من الضحك ، لكنهما تماسكا ، وثقبت رأس الكاتب فكرة ما كان سيتجرأ أحد من أبطاله يوماً على تمريرها في رأسه لما ستبدو عليه من السذاجة «لقد جندوا حتى العجائز» أما الجار فخطر له مثل شعبي يقول «كمل النقل بالزعرور» .

- جدتي ما الذي تقولينه ... كيف ...

لكن حماس الجدة كان أكبر من أن يوقفه فقاطعته :

- دعني أحكي ... في بيتي لا أحد يستطيع منعي من قول ما أريد... ألا يكفي أن أبنائي وأحفادي جميعاً هائمون على وجوههم في هذا الصقيع ... يبحثون عما يثبتون به صور هذا البغل العجوز ...

وهنا أدرك الجار أن الأمور بدأت تفلت من يده ، وأن عليه أن يكون صارماً وإلا ... لا أحد يعرف ما الذي يمكن لهذا الكلب الجالس معهم أن يفعله... فصرخ في الجدة :

- جدتي كيف تتفوهين بهذه الكلمات عن زعيمنا العظيم ... ما الذي جرى لك ...؟

- ماذا تقول ... أنت سكران ... أنت من يقول هذا ... لا أصدق ما أسمع ... أنت الذي كنت تبصق في وجهه كلما ظهر على التلفزيون ...
- أنا ... !!؟
- ومن غيرك كان يأتينا بالنكات عنه ... ويتفنن بسبه بمناسبة ودون مناسبة ؟
- أنا ... ؟

نهض الجار من مكانه مضطرباً ، وهو لا يدري ما يفعله ، وأخذ يرتدي معطفه بسرعة دون أن يتجرأ على النظر في وجه الكاتب الذي كان يتابع ما يجري بريبة ، والقلق يتسلل إلى أعصابه ، إذ كان على يقين من أن غاية هذه المسرحية هي الإيقاع به فحسب ، ويدرك أن عليه الانقضاض على الجدة ، لكنه لا يعرف كيف ، فقد كان أداء الجدة مقنعاً لدرجة أنه وقع تحت تأثير إيهامها بسهولة ويسر كبيرين ، متعاطفاً مع كل كلمة تنطق بها ، ولم يستطع الانسلاخ عنها إلا في تلك اللحظة التي نهض الجار فيها مرتدياً معطفه ، عندها فقط أدرك أن المسرحية أوشكت على الانتهاء دون أن ينطق بكلمة واحدة ، مما يعني أن حياته نفسها قد توشك على الانتهاء إذا ما أسدلت الستارة والصمت لم يزل يلف لسانه ، فما كان منه إلا أن نهض صارخاً في الجدة وهو ينعتها بكل أنواع الشتائم ، متهماً إياها بالخيانة والعمالة والتطبيع ، أما الجار فقد وجد في هذه الصرخة فرصة مناسبة للحفاظ على ماء وجهه الذي عكرته الجدة ، فتابع هجوم الكاتب وهو يصفها بالخرف السياسي وضيق الأفق والدوغمائية . ليخرج الاثنان من المنزل بعد ذلك أمام نظرات العجوز المذهولة ، التي لم تسلم من لسانيهما حتى بعد أن أصبحا وحيدين في الشارع .

من مكان ما صدحت أغنية قديمة عن الحب ، وهوت قطعة من الصفيح خلفهما ، بينما كانت الصور الممزقة تتطاير فوق رأسيهما ، وتتمرغ في الوحل تحت أقدامهما ، التي ما عادت تتمايز عن أقدام الآخرين ، جميعها كانت تعبة وقذرة ومسرعة في كل الاتجاهات ... ولكن فجأة ومع صرخات لا تضاهيها فرحة البحارة الذين ساروا وراء كولومبس عند رؤيتهم اليابسة ، أخذت بوصلة ما تحركها نحو زاوية واحدة

... ورغم أنهما لم يستطيعا إدراك مكان هذه الزاوية تماماً ، ركضا كالجميع إلى حيث يركض الجميع ...

طابور طويل لا ترى نهايته من الباحثين المتعبين انتصب أمام شاحنة ضخمة تبيع الغراء المهرب ، لكن من منهم كان يأبه لطوله ، بعد أن وجدوا أخيراً من يبيعهم صكوك ولائهم و«وطنيتهم» ، فمن انتظر ثلاثين عاماً في طابور الزمن الميت كي يحصل على نصيبه من الحياة ، هيهات يأبه لرائحة الجثث ...

كان كل منهما متأكداً من انتصاره ، فالمأثرة اقترفت ، والكلب ...السافل ... ابن القحبة لم يستطع الإيقاع بهما ، على الرغم من كل محاولاته الدنيئة ، وأساليبه التكتيكية الملتوية . وكيف لا ... وقد خبراه وعرفاه أكثر من أي شخص آخر في البلاد ... وربما كان أقرب من أي شخص إليهما كذلك ... بل يمكن القول أن في داخل كل منهما ... في داخل الجميع ... وفي لحظة ما ... ولد وكبر هذا الشخص وأصبح مع الزمن كلباً محترفاً ، وسافلاً وقحاً ، وابن قحبة يفخر بنسبه ...

لكن الغريب أنهما لم يشعرا بالراحة والبهجة ولذة الانتصار ، فقد بدا الآن وكأن كل شيء مر بسرعة كالحلم ... ، لكنه لم يكن حلماً ... وهما انتصرا حقاً على هذه الليلة ... إذن لماذا تحاصرهم الشوارع ... وتلاحقهم العيون ... وتهطل السماء عليهم وابلاً من البصاق ... ؟

هل ستعود فدوى إليه ؟ كيف سينظر في عيونها ؟ أي ذكريات سيحمل إلى أبنائه ذات يوم ؟ تساءل الجار ... أما الكاتب فقد تساءل إن كان سيجد أحداً من أبطاله في انتظاره بين الأوراق حين عودته ...؟ إن كان ثمة من سيصدق كلماته غداً ...؟ وهل يستحق «جنون السلطة» حقاً كل هذا العناء الطويل ... ؟

ما إن ولجا مدخل البناء حتى صعقا من رؤية الجدار ، فالصورة لم تكن في مكانها ، لقد حملتها الرياح ... ولعلها تتمرغ الآن في الوحل مع آلاف الصور الممزقة في

شوارع المدينة ، تقدما بضع خطوات إلى الأمام وعيونهما تتفرس في الجسد المستلقي بجانب الجدار ، وقد خطر لهما للحظة بأن «الكلب ... السافل ... ابن القحبة» نام ، لكنهما مع كل خطوة اقتربا فيها منه ، أخذا يدركان أن الأجساد المتجلدة لا تنام ، بل تموت ، وشعرا أن جسديهما أكثر برودة من أي وقت مضى .

***

*** هذه القصة مستوحاة من واقعة حقيقية رواها لي الصديق الكاتب والسيناريست د. ممدوح حمادة الذي قام بدوره بتحويلها لاحقاً إلى قصة قصيرة بعنوان "الصورة" ضمن مجموعته القصصية "دفتر الأباطرة" 2016 ، فوجب التنويه .**

الجائزة

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي تتكرر فيها مشاهد الأطفال والحجارة والموت على خشبة المسرح ، وكما في كل مرة انتفض المشاهدون ليكرروا المراسم ذاتها التي أتقنوها وبرعوا فيها عبر خمسة عقود من البهجة والألم ... ، فينهضوا مستنكرين وشاجبين ومنددين ، وتعود الأغاني الحماسية لتصدح في الصالة ، وتكاد حناجر الخطباء تنفجر في الوجوه ، وتدبج المقالات النقدية فوق المقالات تحت القصائد شمال غرب الكاريكاتيرات الثورية ... لتنضم إلى ركام يناطح السماء من التراث النضالي القيم للبلاد .

لكن في هذه المرة شعر المخرج بغريزته الفطرية أن ثمة إحساساً بالضجر بين حشود المشاهدين ، وأخذت الململة والتعليقات الساخرة تتصاعد بحدة ، وعليه إنقاذ الموقف قبل أن يهتاج الجمهور ويطالبه بعرض جديد ، عليه أن يتخلص من ذلك الأسلوب التقليدي للعرض ، بما يحتويه من حبكة ركيكة غير مقنعة ... و سرد ممجوج بالخطابة المباشرة ... وأنماط تقليدية من الشخصيات المهتزة ... وأداء متصنع للممثلين ... وغياب المعادل البصري للنص ... ودلالة مشوهة للإضاءة والديكورات والإكسسوارات ... وستارة من الدم تسدل في نهاية كل فصل .
في الواقع إن أي مخرج آخر في العالم كان سيفكر من كل بد بعرض مبتكر وجديد أمام كل هذه المصاعب التي تواجهه . لكن هل يوجد في العالم مخرج بعبقريته وموهبته الفذة ؟ بالطبع لا ... فهو الوحيد الذي استمر عرضه على مسارح البلاد كلها خمسين عاماً دون توقف ... وفي كل مرة كان ينتهي بتصفيق حاد ترتج له المدن والشوارع والأبنية ...

وإذا أردنا أن نكون أكثر موضوعية في التأريخ لهذه الظاهرة الفريدة ، فلابد من الإقرار بمصاعب مشابهة واجهت المخرج في الماضي ... واستطاع أن يتخطاها بتعديلات طفيفة على العرض ، كاستبدال الأسلحة الخشبية بقطع حقيقية لامعة ... أو إحاطة العرض بنوع من الغموض ... وحين التبس الفهم على الجمهور لدى رؤيته جيش المنهزمين يلوح بإشارات النصر ، ولم تقنعهم جميع المقالات النقدية بعمق الدلالة المجازية لهذا المشهد ، ومصداقيته الكبيرة ، قرر أن يعيد الحماس إليهم ، فأنزل الى الخشبة أعداداً كبيرة من المقاتلين الأشاوس ... لتضج القاعة بالصراخ والتأييد مع أزيز الرصاص وسقوط الأعداء . ولكن هذه اللحظات الارتجالية كان عليها أن تنتهي ليستكمل العرض سيرورته الطبيعة .. فأنهى المخرج بمجزرة واحدة جميع المقاتلين ... ورمى بمن تبقى منهم في زاوية الخشبة ...

بدأت الصالة بالتململ من جديد ، وأخذ الكثيرون يغادرونها دون رجعة ... لا ... هذا لا يجوز ... لابد من ارتجال حدث تنقبض له الأنفاس ... وتتعلق به الآمال ... إنها الحرب ... وهل ثمة ما هو أكثر إثارة من الحرب ... نعم ... ولكن من عليه أن ينتصر فيها ... ؟ وقع المخرج في حيرة من أمره ... فالهزيمة كانت تعني نهاية العرض ... أما الانتصار فكان يتناقض جذرياً مع السياق الدرامي للنص... إذن عليه أن يجمع بين الاثنين ... ولم لا ... فكل شيء ممكن ... سوف يجعل أبطاله ينتصرون في جميع المعارك الحاسمة مع العدو ... المعارك التي لم يؤمن أحد يوماً بالانتصار فيها ... ولكنهم سوف يخسرون الحرب ... ولم لا ... ليس من الخطأ في شئ أن يستلهم بعض المشاهد من مسرح العبث ...

وهكذا كان ... دون أن تلتبس على الجمهور في هذه المرة إشارات النصر ، فأغرق الصالة بالهتاف والتصفيق ... لكن ما إن هدأت الصالة وعاد الجميع الى أماكنهم حتى تفاجئوا بأعلام العدو ترفرف من جديد على الخشبة ... ما الذي يجري ... ؟ كيف يمكن هذا ... ؟ لقد شاهدناهم يتساقطون كالذباب أمام أعيننا ... فما الذي حدث ... ؟ هل يستخف المخرج بعقولنا أم ماذا ... !؟

و قبل أن تستشري عدوى الأسئلة بين المشاهدين فجر المخرج مفاجأته ... وعادت الحرب من جديد الى الخشبة ... لكن هذه المرة لم تكن مع الأعداء ... بل بين الأخوة ... ليغرق الجميع في التأمل ومتابعة التفاصيل الطويلة للحرب ، التي بهرها المخرج بجميع أشكال الاغتيالات والمؤامرات والمجازر المثيرة ... ولم يكتفي بكل ذلك ، فقرر تصعيد الحدث على نحو لم يألفه تاريخ المسرح أبداً ... فدفع أحد الأخوة الى الجانب الآخر من الخشبة ليصافح أمام دهشة الجمهور وحيرته اللامتناهية قبضة العدو ...

عندها فقد الجمهور سيطرته على نفسه أمام هذا التحول المفاجئ ـ والذي وصفه العديد من النقاد بعد ذلك باللامنطقي ... والمقحم ... والمفتعل ـ وقرر للحظة قلب المنصة بمن عليها..

ولكن المخرج الفذ أعاد الحرب إلى الواجهة مباشرة ... ليعود الهدوء الى الصالة في ترقب ما سيحدث ...

ويمضي العرض رتيباً ... مجرد فوضى من القتل والدمار ... وعندما لم تعد المؤامرات والاغتيالات والمجازر تثير الجمهور ... قرر المخرج الجهبذ تصعيد الحدث ... وإفراغ الخشبة من الأعداد الكبيرة من «الكومبارس» ... فأسقط مدينتهم وأخرجهم منها ومن المسرح بأكمله ...

ولكي لا يتجاوز الحنق حدوده في الصالة ... كان لابد من تسليط الأضواء على بطل إيجابي ما يستأثر بعواطف المشاهدين ويمنحهم شيئاً من الأمل والرغبة في الانتظار ... فبدأت تلعلع الشعارات البراقة ... والخطب الشرسة ... والبيانات الصاخبة ... وبدأ خط درامي جديد يتبلور أكثر فأكثر بعد أن أعلن الأخ «الإيجابي» صموده وتصديه حتى النهاية ... وفي سبيل الصمود والتصدي كان كل شيء مبرراً في نظر الجمهور ... فصفق للمجازر ، ونادى بالسرقات ، وأيد

كم الأفواه ، وهلل للاعتقالات ، وهتف للبؤس والبطالة والافقار ... وبقي العرض طويلاً يستلهم حيويته من الصمود والتصدي ...

ولمزيد من الحماس أنزل المخرج العبقري حشوداً كبيرة من الأطفال والحجارة إلى المنصة ، واخذ يسقطهم بالعشرات ... وعندما تبين له من خلال مؤشرات البورصة أنه بالغ في قتلهم ... وأن طوفان من الدموع يهدد جدران المسرح ... أبتدع تحولاً دراماتيكياً ما كان ليخطر على بال أعظم المواهب الفنية ـ في مسيرة أحد الإخوة ، والذي كان طيلة العرض يخوض حروباً جانبية ، وإذ به فجأة يدخل الحبكة ، ويرمي العدو بحفنة من الصواريخ لم يتوقف بعدها التصفيق والتصفير والهتافات في الصالة لفصول طويلة ، وحتى عندما أعاده إلى حجمه وموقعه الطبيعي في السياق الدرامي ، أبقى عليه بغية التشويق ... فهو يعلم أنه بهذه الطريقة سينتظر الجمهور دوماً أن تقوم هذه الشخصية بفعل ما في المستقبل ...

كان من الطبيعي بعد كل هذه الحروب والوعود والهزائم ، أن تصاب جيوب المخرج بالإفلاس ... رغم كل الدعم الإنتاجي الكبير الذي كان يقدم له من الخارج ... وأحس أن عليه خلق عناصر تشويق جديدة ... يجب أن يبدع انعطافاً حاداً في الحدث ... يدفع العرض إلى الأمام وبأقل تكاليف ممكنة ...

ومن غيره يستطيع هذا ، ومن غيره خلق لهذا ... فلابد أن الجمهور نسي بعد كل هذه العقود من العرض مضمون الحبكة الأساسي ، وأصبح بحاجة لتنويعات أكثر هدوءاً واستقراراً وانسجاماً مع متطلبات العصر ، ودون أن يفكر كثيراً قرر أن يصالح الجميع ... الأخوة والأعداء ... لكنه ما إن دخل في تفاصيل الحدث ... حتى أعاد التفكير فيما شرع بتنفيذه ... فإن تم ذلك ... فسينتهي العرض ... ولن يسمح له أحد بعد ذلك بعرض جديد ... فمع انتهاء العرض ستنتهي حركته الفنية الملتزمة ... كيف لم يفكر بذلك ... هل بدأ وحيه يخونه ... وموهبته تستنفد طاقتها ... لا ... لن يسمح للعرض أن ينتهي أبداً ...

من جديد استنجد بالأخ «الإيجابي» ... ليسحب يده في اللحظة المناسبة ، ويرفض مصافحة قبضة الأعداء ، ويعمل على مزيد من الصمود والتصدي ، بعد أن أصبح خبيراً محترفاً في هذا العلم ، ويشهد له بذلك الكبير والصغير والمخنوق في السرير ...

واستولت السكينة على المنصة ، ودخل الجمهور في متاهات لا تنتهي من الحوارات والوعود والمناوشات والاتهامات والقرارات والانتخابات ... وعلى الرغم من أن المخرج كان يدرك الملل الذي سيخيم على الجمهور من كل بد في النهاية ... غير أنه لم يكن يعرف كيف يخرج من كل هذه الثرثرة الفارغة ... فالتناقضات التي فجرها على المسرح ، والتي جعلت عرضه الأكثر تشويقاً وإقبالاً في المدينة ، وأدخلت إلى جيوبه مئات الميزانيات ، كانت تبدو عصية على الحلول الوسط ، التي تبقي العرض مستمراً ... وتدفع الحدث إلى الأمام ...

وما توقعه حدث فعلاً ... وبدأت الصالة بالتململ من جديد ... وأخذ الضجر يتسلل إلى نفوس المشاهدين ، دون أن يجد المخرج حلاً تصعيداً ما للحبكة . فالمخرج الذي برع في أداء جميع الأدوار الرئيسية ، بتغييرات بارعة في المكياج ، ليبدو الإخوة معها بوجوه مختلفة تماماً على المنصة ـ لم يكن مستعداً للتنازل عن الديكورات والإكسسوارات الفخمة والمبهرجة التي تحيط به ، والأهم من ذلك لم يكن ليتخلى عن سطوته الإلهية على حشود الكومبارس التي تدور في فلكه ، وما جعل المشكلة تتفاقم أكثر ملل هذه الحشود من أداء الموت ، وتهليل المشاهدين لجنائزهم ...
ولكن لم يكن ثمة حل آخر ، لابد لهم من أن يموتوا ... شاءوا أم أبوا ... فقد أثبت تاريخ المسرح أن لا شيء كالموت يحرك الصالة ... إذن لا شيء سوى الموت سوف ينقذ عرضه التاريخي ... ولأجل ذلك وعد حشود الكومبارس بجوائز قيمة لأفضل من يموت منهم على الخشبة ... وعدهم بالجنة ... بالعودة ... بالأرض ... ورغم أنه يعدهم بها منذ خمسة عقود من العروض المتواصلة ... لم يستطيعوا ألا يصدقوا أن خمسة عقود من العروض المتواصلة غير كافية لتفجير المسرح ... والفوز بالجائزة ...

ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي تتكرر فيها مشاهد الأطفال والحجارة والموت على خشبة المسرح ، وكما في كل مرة انتفض المشاهدون ليكرروا المراسم ذاتها التي أتقنوها وبرعوا فيها عبر خمسة عقود من البهجة والألم ... فينهضوا مستنكرين وشاجبين ومنددين ، وتعود الأغاني الحماسية لتصدح في الصالة ، وتكاد حناجر الخطباء تنفجر في الوجوه ، وتدبج المقالات النقدية فوق المقالات تحت القصائد شمال غرب الكاريكاتيرات الثورية ... لتنضم إلى ركام يناطح السماء من التراث النضالي القيم
للبلاد .
ولا يزال العرض مستمراً ...

***

المبادرة الطيبة

من المؤكد أنه لم يكن ثمة من يستمع إليه ، فالعبارات المنمقة والشعارات الصارخة والديباجات المفخمة ما عادت تثيرهم منذ انهيار الاشتراكية الأولى في العالم . في الواقع هو نفسه لم يكن يستسيغ كل هذه الخطابة المزينة بأحابيل الكلمات والعواطف ، لكن الواجب يبقى واجباً ، وذكرى الثورة لا تقبل الجدل ، يجب أن تعيش رغم كل شيء ، وخاصة في وجدان أولئك الثوريين الجدد ...

لقد زار في الماضي معظم دول المنظومة كضيف مرموق للمناسبات الوطنية والمهرجانات التضامنية والمؤتمرات العمالية ... لكن لكل شيء بداية ...

عندها غادر قريته للمرة الأولى ، ومن ورائه نصف سكانها يتقاذفونه في دائرة واسعة ، لا يتوقف أزيز القبلات فيها لحظة واحدة ، وبالطبع التوصيات الكبيرة : الأعمال الكاملة لفلاديمير ايليتش لينين ، دون أن ينسى من كل بد بعض البورتريهات الملونة له ... فودكا ... أسطوانات لأغاني الحرب ... أعلام حمراء ... بل إن البعض تجرأ وطلب الكافيار نفسه ، أما أكثر التوصيات تواضعاً فقد استجدت منه وضع باقة من الزهور على قبر ستالين .

لعل القرية لم تشهد في تاريخها وداعاً مهيباً كهذا ... وكيف لا ... فابن القرية لا يغادرها إلى أمريكا ما ، أو شيء من أوربا ، إنه يمضي إلى الجنة ... حيث كل شيء كما في الأحلام ، كما كان يؤكد دوماً مسؤول المنظمة الحزبية بمباهاة لا تخلو من الغيرة ، وتصميم اقرب ما يكون إلى التحريض ...

خمس سنوات انقضت دون أن يجد لنفسه مدينة أو جامعة أو حتى شارعاً يليق به ... «البيروقراطية تخنقنا» لم يكن يوفر محفلاً حزبياً أو غير حزبي إلا ويكرر فيه هذه العبارة . والحقيقة أن شعوره بالسخط كان صادقاً ونقياً ، ينبع من أعماق قلبه ، لكن ليس على البيروقراطية ، وإنما بطريقة ما على نفسه وشخصيته المميزة ، والتي بهرت منذ اللحظة الأولى بانسيابية السيقان السلافية .

كان يقول لنفسه :«لو كنت شخصاً عادياً لاختلفت الأمور ... كل هذا الجمال الخارجي ... ولا شيء في الداخل ... مجرد فراغ مقيت لا غير ... »

لكن ذلك لم يثنه عن المحاولة مجدداً و مطولاً : «أتعلمين يا ناتاشا أن علم الجمال الماركسي بأجمعه مجسدٌ في عينيك ... آه يا أكسانا إن شعرك الأشقر ليذكرني بحقول الذرة الأمريكية حيث قضى آلاف الزنوج نحبهم ... مارينا ما رأيك بتقرير اللجنة المركزية حول الخطة الخمسية المقبلة ... جانا هل تدركين القيمة التاريخية لما كتبه لينين حول الجنس ... » .

وهكذا خسر جميع حملاته وفتوحاته ومعاركه في أرض الأحلام ، لينقم عليها في داخله إلى أبد الآبدين .

سنوات طويلة مضت ولم يفهمه أحد .. وفي كل مرة اعتلى المنابر فيها كان لابد له كشيء من البديهيات والأولويات ـ أن يشيد بالمبادرة الطيبة للشعب الكوبي ... مما آثار حفيظة الرفاق وما أكثر ما يثيرها : «وبرأيك ألا توجد مثل هذه المبادرة الطيبة لدى الآخرين » ... إنه بالطبع يعلم من هم أولئك الآخرين المعنيين مما جعله لا يتردد لحظة في النفي القاطع: «لا ... هناك لم يتخلصوا يوماً من القيود الأخلاقية الغريبة ... والدولة وحدها تبادر إلى كل شي ... » .

في نهاية العام الثاني له بدأت الأزمة داخل الحزب ، والانقسام بدا وشيكاً ، ودون مواربة اتخذ مكانه مع الأقلية في المكتب السياسي ... ليس لتميزها كعادة الأقليات ... بل لمجرد أن زعيمهم كان قائداً من أولئك الذين يشاء التاريخ مكرهاً أن يضمه إلى جحافله ... ولأنه كان مولعاً بهالة القيادات المقدسة ... مما جعله يستحق بجدارة

فرصة جديدة في أرض جديدة ... و أي أرض .. إنها كوبا بشحمها ولحمها ... وليس بالمعنى المجازي على الإطلاق ... كوبا الجزيرة العابقة برائحة السيجار والكاكاو والثورة والتي سيذكرها ويدافع عنها كرائدة في مجال المبادرات الطيبة طيلة حياته .

لم يفلح احد من الرفاق في استدراجه لكشف التفاصيل الدقيقة والأسرار الخفية وربما الوصفات السحرية لهذه المبادرة الطيبة التي لا يمل من تبجيلها وعدها أعظم منجزات الثورة . فالسنوات الطويلة من العمل الحزبي جعلته متمرساً في المواربة والمناورة وإذابة أكثر الاستفسارات وضوحاً في أسيدٍ مركب من زحمة سفسطائية تضج بالتاريخ والمسرح والشعر الجاهلي ...

عندما وصل الى هناك سأله مسؤول في الستين من عمره يحمل لحية بيضاء في ذقنه وامتداداً شاسعاً لجبهته السوداء اللامعة فوق رأسه ـ عن المعهد الذي يرغب بالدراسة فيه ، فأجاب بعد وهلة قصيرة من الزمن : «سوسيولوجيا» محاولاً أن يتذكر أين سمع بهذه الكلمة ... لذلك لم تراوده أي وساوس أو إحساس بالخيبة عندما وجد نفسه في معهد السيكسولوجيا نتيجة خطأ إملائي في طلب الانتساب ، على العكس تماماً فقد كافأ نفسه على خياره الصائب بتدخين سيجار كامل على الشاطئ الكاريبي لم يتوقف عن السعال بعده لمدة أسبوع .

لم يكن قد مضى على تأسيس المعهد حينذاك سوى بضع سنوات ، وذلك بغية التأسيس لثقافة جنسية ثورية في مواجهة الثقافة الليبرالية السائدة في مواخير أمريكا الجنوبية ، وترسيخ تقاليد جديدة في الممارسات الجنسية بين أبناء الشعب ، ونبذ تلك القيم البالية التي كانت تخول تقبيل الرجال لفروج النساء ...

أما الرسالة التي بعث بها إلى رفيق قديم في قريته ، فقد كانت بمثابة اكتشاف حقيقي ، يعادل اكتشاف كولومبس لأمريكا . فمن أين لابن القرية معرفة كل هذه التفاصيل الدقيقة التي يخوض فيها علم الاجتماع ، والتي أدرك أنه لو حاول مجرد قراءة عناوينها أمام أبناء القرية ، لكان ذلك كفيلاً بإزالة القرية بأكملها من الوجود ، مما جعله يلوذ بالصمت ويكتفي بالقول أن ابن القرية سيعود كعالم كبير في الأبقار ...

لقد شغف حقاً بالدراسة ، وكيف لا ، وكل المداخلات والمناظرات والسجالات كانت تقوده إلى دروس عملية نموذجية صاخبة ، تعج بالآهات والصرخات ورقص السامبا فوق البطن . لم يوفر مكاناً إلا ونهل منه العلم : تحت الطاولات ... فوق الأشجار ... على الأسطح الخشبية ... وفي دورات المياه ...

كل ذلك دون أن يتكلف يوماً عناء زر من قميصه ... بأصابعهن الدقيقة السمراء كن يتكفلن بكل شيء ... بل بأي شيء كذلك . وفي كل مرة ينتهي من فروضه الدراسية المجهدة ، كان يستلقي على ظهره ويتساءل بمرارة تحمل رائحة الماضي غير البعيد : «أين الروسيات من كل هذا ... كم هن بليدات ... ساذجات ... و باردات » ليستنتج فتواه العميقة : «كوبا هي النموذج العصري الأمثل للاشتراكية ... » .

أحس بخبرته التاريخية المخضرمة أن الحشد ما عاد يطيق صبراً به ، وعليه أن يختم خطابه الاحتفالي بكلمة أخيرة رغم الصفحات العشر المتبقية ، وإلا ... لكن لا ... إنه يعرف الخاتمة جيداً ... عشرون عاماً مضت على وداعه القارة الأمريكية ... ولم يزل يذكرها :« فلنتذكر كوبا ايها الرفاق ... كوبا الجميلة ... كوبا الناعمة ... كوبا الشبقة حتى الموت ... » لم يكن الوداع سهلاً ... أربع سنوات كاملة ... أجمل سنوات عمره وأكثرها بهجة مضت بومضة عين ، لم يصدق يومها أن كل شيء قد انتهى ... لكن ها هي ذي أطروحته في "أصول المواخير وتاريخ الدعارة" أنجزت ... ولم يبق له إلا أن يغادر هذه الأرض الطيبة إلى الأبد :

«كوبا أيها الرفاق لا تعرف النوم ... صدقوني إنها لا تمل ... لا تتعب ولا تكل ... لا يمكن إن تتصوروا أي خيال براغماتي جامح ... أي انفتاح إيديولوجي ... أي مبادرات خلاقة وطيبة ... هي كوبا ... إنني أتوجه إلى كل رفيق منكم وأقول له بكل صراحة وصدق ... إن أنت لم تذهب إلى كوبا ... فأنت لم تر الاشتراكية بعد ... » .

***

حوارية وطنية

نظر الطبيب بعيون لا مبالية إلى صورة الأشعة ، واستدار نحوه ضجراً وقال :

- "قدامك عشر سنوات ... "

بينما استطرد الطبيب بلهجة ...أطرق المريض رأسه دون أن ينبس بكلمة واحدة باردة :

- "إذا لم تترك التدخين ... "
- "عشر سنوات ... ؟ "
- "نعم ... أنظر ... هل ترى هذه الخطوط ... ؟ "

حدق المريض الشاب في الصورة وهز رأسه :

- "أراها ... "
- "هذه الخطوط تظهر عند المدخنين في الخمسين ... وعند الذين لا يدخنون في حوالي الخامسة والستين ... أما أنت فكم عمرك ... ثلاثة وثلاثين لا أكثر ... "

هز المريض رأسه مؤكداً :

- "نعم ... ولدت في عام النكسة ... "
- "وضعك الآن هو النكسة ... هذه الخطوط تعني أن العد التنازلي لحياتك قد بدأ ... "
- "أي عد تنازلي ... قلت لي عشر سنوات ... "
- "لا أكثر ... "
- "وهل عشر سنوات قليلة ... ؟ " تساءل المريض بمرارة .

فنظر إليه الطبيب متعجباً وقال بسخرية :

- "ليست قليلة لعجوز في السبعين ... "
- "ليست قليلة على أحد ... "
- "وكأني أكلمك عن عشر سنوات خدمة في الجيش ... أو السجن ... "
- "صدقني الجيش والسجن أرحم ... "

جحظت عيون الطبيب وهو ينظر إليه غير مصدق :

- " أرحم ؟ "
- "طبعاً ... في الجيش أنت مثل البيدق ... يسار در أمام سر ... كل شيء واضح ... يحركونك كما يريدون ... ولا تواجهك متاهات تحتار أمامها في الاختيار ... وفوق كل ذلك ورغم أنك بيدق لا يكش ولا ينش ... تشعر وكأنك ملك حقيقي ... فالحذاء الثقيل يعطيك إحساساً عظيماً بالجبروت ... ما أن ترتديه حتى يسرح بك الخيال وتفكر أية رقبة يمكنها أن تصمد تحته ... أي رأس لا تستطيع معسه وعفسه ... أما عندما تمسك بالبندقية ... فلا تستطيع إلا أن تتلذذ وأنت تحلم بأكوام من الجثث أمامك ... لكن أجمل ما يمكن أن تناله من متعة يأتي عندما يصفونك أمام الآخرين ليسيروا وراءك ورهن إشارتك ... "

أخرج الطبيب زفرة عميقة وهز رأسه مبتهجاً :

- "نعم نعم ... أنني أذكر ... أه لو تعرف كيف كنت أمسح الأرض بهم ... أحسن واحدٍ فيهم كنت أناديه بالحمار ... ولذلك كان الجميع يحترمونني ... الكبير قبل الصغير ... وبالمناسبة الكثيرون منهم أصبحوا من زبائني حتى اليوم ... ولكن ... "

قاطعه المريض :

- "لا تقل لي ولكن ... حتى السجن أهون ... صحيح أنك هناك أقل من بيدق ... ولكنك تشعر على الأقل أنك حر ... على الأقل أنت حر في اختيارك الذي أوصلك السجن ... عدا عن كونك متفرداً في هذا الخيار عن الجميع ... كل هذا يجعلك متميزاً ... مختلفاً عنهم... وهذه سعادة لا تضاهيها سعادة ...

هز الطبيب رأسه من جديد موافقاً :

- "أه ... نعم ... والأهم من كل هذا ... هل تعرف ماذا ... أنت لم تزل صغيراً ولن تعرف ... أنه أفضل من أية جامعة في العالم ... وعندما تخرج يمنحك الناس شهادة مناضل ... ماجستير في النضال ... وليس مهماً هنا إن كنت كذلك أم لا ... أنا مثلاً لم تستهوني السياسة يوماً ... لكن كما يقولون لا مفر من المكتوب ... نصيبك سيصيبك من كل بد ... وهذا ما حدث معي ... كنت جالساً في بيت أحد الأصدقاء ... وفجأة طبوا الشباب وحملونا إلى المزة ، وهناك فهمت بأن الأخ شيوعي ... وعندما أدخلونا معاً إلى المهجع أعتقد جميع الرفاق بأنني مثله ... وهات يا عناق وبوس وترحيب ... وأنا لم أكذب الخبر ... يعني بعد كل هذا الاستقبال لم أجدها حلوة أن أكسر بخاطرهم ... شيوعي شيوعي ... عندها لم أكن أعلم ما ينتظرني في الصباح ... وأي صباح ... لن أنساه في عمري ... هات يا سلخ ... كان المحقق يريد أن يعرف أسماء الشيوعيين الذين أعرفهم ... ومن أين لي أن أعرف شيوعيين ... وهات يا سلخ ... قلت له مرة أنتظر .. أعرف ... تذكرت ... أبو جاسم وأبو جورج وأبو زياد وأبو عبدو ... فسألني وأين هم هؤلاء ... فقلت له في المهجع ... وهات يا سلخ ... لقد ظنني أسخر منه ... وكل يوم الفيلم نفسه يتكرر ... في هذا الوقت كان الكثيرون يخرجون ... أما أنا فوضعوني في زنزانة انفرادية لا يدخلها ضوء ولا هواء ... يصبحونني بقتلة ويمسونني بقتلة ... وكان من يوقّع منهم يخرج ... أما أنا ـ.. وهذا ما علمته فيما بعد ..

لم يقترحوا علي حتى التوقيع ... كانوا واثقين من أنني سأرفض ... وكيف لا ... فمن لم يبح باسم رفيق واحد هل يعقل أن يوقع ... "

- "وطبعاً لما علمت وقعت وخرجت ... "
- "لا ... لم أفعل ... فعندما أعادوني إلى المهجع لم اصدق ما جرى ... لقد استقبلني الرفاق وكأني إمبراطور الحبشة نفسه... الجميع كانوا يقبلونني ويضمونني ويهنئونني على شجاعتي الفريدة ... ومرة أخرى لم استطع أن أكسر بخاطرهم ... عندما يؤمن الجميع أنك بطل لا تستطيع إلا أن تؤمن أنت نفسك بذلك ... "
- "وأمنت بذلك ... "
- "أمنت بالله ... كل شيء من تدبيره ... عندما دخلت السجن لم أكن أعرف الطمسة من الخمسة في السياسة ... وعندما خرجت كنت أعرف كل شيء ... كل شيء ... الثورة والثورة المضادة والانبطاحية والتحريفية و دور الفرد في التاريخ والجغرافيا ومرض اليسارية الطفولي والإمبريالية والأممية ... كل شيء ... وفي غضون أشهر أصبحت من أهم المناضلين المقربين للزعيم ... وصارت عيادتي لا تفرغ من المرضى ... ومن أحاديثهم كنت أزداد علماً يوماً بعد يوم ... "
- "يعني صرت عضواً في الحزب ... "
- "الكل كان يعتقد ذلك ... وبما أن الحزب كان سرياً في ذلك الوقت فما كان أحد يسأل عن المكان أو المنظمة التي أعمل فيها ... وبصراحة الأمر كله لم يكن يهمني ما دام الرفاق وعائلاتهم مداومين على العيادة ... وهذا ما كنت أحرص عليه ... لذلك كنت أوافق الجميع على جميع ما يقولونه ... ولكن بعد سنوات طويلة فوجئت بدعوتي الى المؤتمر العام الذي سمعت عنه طويلاً لكنني لم أكن قد رأيته شخصياً بعد... وفوجئت أكثر عندما جاءت الانتخابات وصرح أحد الرفاق أن الزعيم وحده من يستطيع تسمية أعضاء اللجنة المركزية السابقة ... أما المفاجأة التي ما كنت أتوقعها أو حتى أحلم بها فهي أنني كنت بسلامة قدري عضواً في هذه اللجنة طيلة السنوات الماضية من غير أن أدري .. وعندما تم انتخاب

اللجنة المركزية الجديدة حصلت على أكثر الأصوات بعد الزعيم ... فالجميع كانوا إما من زبائني أو من المناضلين القدامى الذين عاشرتهم في السجن "

- "يعني صرت بين يوم وليلة من أهم قياديي الحزب ... "
- "يا عيني عليك ... "
- "غريب أنك لم تتسلم قيادة الحزب حتى اليوم ... "
- "صدقني كان ذلك ممكناً لولا لساني ... فمرة حبكتْ بين الشباب ... وتعال حلها ... أنا كل عمري مع الكل ... وأثناء الزيطة كلها أنا لم أفتح فمي بكلمة ... قلت لنفسي ما لك وهذه الصرعة ... طول بالك يا رجل وأنتظر على من منهم سوف ترسي وحط يدك بيدهم ... لكن مرة أخذتني الحماسة وأدليت بدلوي ... ويا ليتني لا أدليت ولا أكلت هوى ... كانوا مختلفين على العمل الفدائي ... فقلت لهم يا شباب والله القصة لا تستحق ... يعني لو كنا فدائيين كانت القصة فيها و ما فيها ... بس يعني كم فدائي عندنا ... هي كلمة وقلتها ... لتنقلب الدنيا والآخرة من بعدها فوقي ... وكل الشتائم السياسية التي كنت أسمعها نزلت على رأسي ... ومن جميع الجهات : انبطاحي ... متذبذب ... انتهازي ... تحريفي ... عميل ... خائن ... يعني لو أني كفرت بالله عز وجل لما اتهمت بكل هذا ... "
- "وطبعاً طردت من الحزب ... "
- "فشروا بعينهم ... "

أكد الطبيب بحزم ليستطرد :

- "أنا من نفسي خرجت ... قلت لنفسي يا ولد قبل أن يشلحوك السيارة أطلع ويا دار ما دخلك شر ... "
- "ولم ينقطع رزقك بعد ذلك ... ؟"
- "أنا لا ... لكن إن أردت الحق الكثيرون أنقطع رزقهم فعلاً ... فالبعض .. وهذا ما علمته لاحقاً .. لم يكن لديهم أي عمل خارج الحزب... تصور

حياتهم كلها كانت للحزب ... وفجأة أصبحوا مثلي تحريفيين وانتهازيين وعملاء ... فقط لأنهم لم يمشوا مع الزعيم ... "

- وأنت ... كيف لم ينقطع رزقك بعد أن فقدت جميع زبائنك ؟ "

هز الطبيب رأسه مبتسماً :

- "كما يقولون عمر الشقي باقي ... وربك لا يقطع أحداً ... وخاصة إذا كان مناضلاً سياسياً محنكاً خبر أهوال السجون ، وقيادياً سابقاً في حزب عريق ، أنشق عنه لأسباب فكرية عميقة ... كما فهمت فيما بعد .. "
- "لم أفهم ... "

تساءل الشاب المريض وفي عينيه ملامح الدهشة والبلاهة

- "بعد فترة قصيرة حزب آخر دعاني للانخراط في صفوفه ... "
- "وانخرطت ؟ "
- "طبعاً ... وهل أستطيع أن أقول لا لحزب السلطة ... إذا كانت كلمة عن العمل الفدائي جعلتني خائناً ... فماذا سيفعل بي هؤلاء لو رفضت ... ثم لماذا أرفض ... مال وجاه وسمعة طيبة ... فصرت بفضلهم مدرساً في الجامعة وعضواً في مجلس الشعب وبعد ذلك وزيراً للصحة ... والآن لدي رصيد في الخارج وفيلا ومطعم وثلاثة سيارات ... لك يسلم لي العمل الفدائي ... مثلما يقولون رب ضارة نافعة ... تصور لو أني لم أحك يومها عن العمل الفدائي لكنت شحاذاً حتى اليوم ... "

أطرق المريض الشاب رأسه وقال بلهجة لا تحمل سوى المرارة :

- "وبعد كل هذا تريدني أن أعيش عشر سنوات ... ؟ "
- "بعد كل ما قلته لك ... طبعاً ... حياتي نموذج عليك أن تحتذي به ... "
- "صعب "
- "لماذا صعب ؟ "

- "الآن من يدخل السجن لا يخرج منه كما تعلم... الآن لم تعد توجد أحزاب ... ولا تستطيع أن تسمح للسانك بأن يفلت... الشتائم السياسية صارت اتهامات خطيرة على أمن الدولة ... "

هز الطبيب رأسه مبتسماً :

- "هل أنت أجدب ... عدم المؤاخذة يعني ... من قال لك أن الشتائم لم تعد تنفع ... على العكس تماماً ... الآن صارت الشتائم أسهل ، ولا تسبب لأحد أي مغص... لا تدع مناسبة تفوتك من غير أن تنزل بالصهيونية والإمبريالية والعولمة والتطبيع والأصولية والطائفية و... و ... و ... قائمة طويلة عريضة أمامك ... تصير بعدها وطنياً خمسة نجوم ... "
- "هذا إذا وجدت نجوماً ... وهل بقي في البلاد نجوم ... فالجميع عندنا وطنيون خزيت العين"

هز الطبيب رأسه مؤكداً بجدية :

- "الآن بدأت تفهم ... الأمور ميسورة لجيلكم ... في زماننا لم يكن من السهل على الواحد منا أن يثبت وطنيته ... أما الآن فهذا أمر مفروغ منه ... لكن لا يضرك أن تؤكده دوماً ... عسى ولعل ... فأولاد الحرام كثر كما تعلم ... ولكن وطنيتك لا تكتمل بهذا ... فالهجاء هو نصف الوطنية ... أما نصفها الثاني فهو المديح ... "
- "لمن هذا الحديث ... لعلي بن أبي طالب ...
- "يا عيني عليك ... والقائمة هنا لها أول وليس لها أخر ... فالعائلة كبيرة والحمد لله ... والمسيرة النضالية حافلة بالمآثر ... والمواقف التاريخية ما لها أخت ... يعني أمامك مساحة للإبداع في الألقاب والاستعارات الفخمة لا حدود لها ... "

نظر الشاب المريض إلى سقف الغرفة يائساً :

- "هذا صحيح ... ولكن لا تنس أن المبدعين عندنا صاروا أكثر من الهم على القلب ... "

- "وأين المشكلة ... بلادنا تستوعب جميع الطاقات الخلاقة والمبدعة ... "
- "لا ... اسمح لي ... ليس الجميع ... فالمنافسة صارت شديدة ... وما عادوا يمنحون الجميع هذا الشرف ... كما أنه حتى تصير مبدعاً يجب أن تكون موهوباً ... ولديك الوقت لذلك ... أما نحن الدراويش فلم نعد نستطيع لا أن نمدح ولا أن نشتم ... كل همنا أن نعيش ... أن نعيش لا أكثر ... ومن يستطيع منا يكون أبو زيد خاله ... أما أنا مللتُ من هذه العيشة ... لذلك ... دخيل ربك يا دكتور فكر في طريقة تجنبني هذه السنوات العشرة الطويلة ... وسأكون ممنوناً لك ولكل الوطنيين في هذا البلد ... "

***

شهوة الأشياء

الحلم الأول كان التغلب على البحر فخلق الله .
الحلم الثاني كان التغلب على نفسه فخلق المرأة .
الحلم الثالث كان التغلب على المرأة بعد أن ولدت شيطاناً اسمه الرجل .
الحلم الرابع كان الثورة على الرجال .
الحلم الخامس كان الحرب .
الحلم السادس كان الانتصار .
الحلم السابع والأخير في التاريخ الكوني والذي ولد بعد اكتشاف عدم إمكانية الانتصار كان السعادة.

الإصحاح الأول

***

في تلك المدينة .. وفي ذلك الزمن الذي لم يعد أحد يجرؤ على تسميته .. لم تكن ثمة مقابر لدى تلك الكائنات ..

وقف ممعناً بصره في الصناديق الخشبية الضخمة التي كان عليها أن تعبر إلى الجهة المقابلة البعيدة ، ورغم أنه لم يكن واثقاً من وجود أي جهة مقابلة وكم هي بعيدة ، فإن إصرار الصناديق على المضي لم يدع له أي فرصة لحك جلدة رأسه مرتين .

غلبهم إيمان عظيم بها منذ أن أتت إلى المدينة وفتنت أرواحهم وأحلامهم بما حملته في بطنها من الأشياء .. وعاشوا طويلاً مع هذه الأشياء .. وكان زمناً جميلاً ودافئاً إلى أن جاءت الأزمة، والإفلاس افترس رؤوس الجميع ..

ضجرت الصناديق من هذه الأشلاء النخاعية المتسللة إليها من كل صوب وزاوية ، واعتراها شعور بالقذارة .. أن ثمة من تقيّأ عليها بعد أن شرب برميلاً من البيرة الفاسدة .. بنوع من التمزق والانهيار .. فقررت الابتعاد قدْر ما تستطيع .

- "إلى أين تمضين ؟ " سألتها الكائنات متعجبة من سلوكها .
- "إلى البحر" ..
- "وأشياؤنا؟"
- "هناك .. هناك على السواحل التي لا ترونها وفي أمكنة لا تعرفونها الأشياء سوف تصبح أجمل .. "

لكن الصناديق لم ترجع . هل وصلت إلى تلك السواحل التي تحدثت عنها أم أنها تاهت في المحيطات .. أم أنها غرقت في أعماقها بعد أن ناءت بثقل الأشياء الكثيرة المحملة فيها .. لا أحد يعرف .

ترتب على تلك الكائنات إيجاد مفاتيح تلك المعرفة التي من دونها سوف يستحيل عليهم إقناع الصناديق بالبقاء في أرضهم ، أو الإيمان بضرورة مساعدة الصناديق للانتقال إلى "العالم الجديد" كما أصبحوا يطلقون عليه حتى قبل أن يتيقنوا من وجوده أصلاً . هذه المسألة كانت الأولى في تاريخهم التي تتخذ طابعاً جماعياً لم يعتادوا عليه ولم يعوه على الإطلاق .. وعندما أخذت تتردد كلمات من نوع "المصير" .. "الشعب" .. "القضية" .. شعر الكثيرون برعشة غريبة .. بالخوف بالريبة .. وبالفضول .. لعل هناك ما لم يفهموه منذ البداية رغم أنه عبر من أمامهم مباشرة .. ربما كان عليهم أن يوقفوه .. أن يتحدثوا معه .. أن يستمعوا إليه .. لكنهم جميعاً تجاهلوه بكل بساطة .. مما جعله يبتعد عنهم إلى الأبد .

***

التفت إلى الوراء لوهلة .. ليعود ويغمس عينيه من جديد في الأخشاب الثقيلة الطافية على الزبد .. أما تلك المياه المتوحشة الكبيرة والممتدة إلى ما وراء النهايات المشوهة ببقع من الغيوم وقطع شاحبة من الشمس ، فلم يكن قادراً على النظر إليها . فجأة خرجت من خلفه فوضى ما ، وشعر بأرطال من المستقبل تجتاح رأسه .. زحفت "القضية" ووصلت إلى الشاطئ ووراءها كانت قطعان من الكائنات تجري في أعقابها حتى حاصرتها تماماً وأخذت تعبث بتلابيبها من كل الجهات وبشتى الأدوات الحادة الغليظة .. قامت بتمزيقها .. بتعريتها .. كي تصنع لها "المصير" الذي يليق فيها .

في وقت متأخر .. أدركت الكائنات أن ما قامت به خلق مسخاً شديد التشوه .. غارت إحدى عينيه في رأسه والأخرى ضاعت في فمه .. مسخ غير قادر على رؤية مصيره بالذات ، فمن أين له رؤية مصائر الآخرين .

***

في مكان أخر داخل الفوضى بدأت تتراكم عناصر مركبة من ألسنة لا تحسن الاستماع وعظام مسننة ممزوجة بأنواع من الأحماض السامة وشيء من الفحم .. عناصر كان لعابها يندلق أمام نكهة الأشياء حتى في أزمنة ما قبل الأزمة . أما الآن فقد ارتأت نفسها قادرة دون الآخرين جميعاً على التعامل مع المسخ ، بل أكثر من ذلك .. على إعادته إلى طبيعته المعقدة الأولى بعد أن وسم صدور الجميع بالرعب والقنوط . وعندما أيدتها المدينة بأكملها ووقفت وراءها تهتف باسمها ، اجتمعت هذه العناصر في الساحة المستطيلة وشكلت لأول مرة في التاريخ ما سمي "المجلس الأعلى" . حينذاك (ولحقبة طويلة لم تنته بعد) آمن الجميع أنه الأقوى والأكثر حكمة وفطنة .. مما جعله هو نفسه يؤمن بذلك .. ومستعداً في كل لحظة للبرهان على ذلك .. بأي ثمن كان .. ومهما كان باهظاً ..

***

عاد أدراجه مبتعداً عن المسخ بعد أن فقد كل إحساس نحوه ، ليعلق رأسه على أحد المسامير حيث علقت على مسافة غير بعيدة رؤوس الكثيرين . فمنذ هذه اللحظة ما عادوا بحاجة إليها .. المجلس الأعلى وحده سوف يفكر ويبدع وينتشل المسخ من المستحيل .. لينقل الصناديق التعيسة إلى هناك .. أما هم فسينتظرون وينتظرون المعجزة .

في صبيحة اليوم الثاني - وفقاً لبعض الروايات - لاح المسخ على أحد الصناديق مبتعداً عن المدينة بعد أن رمى بكل الأشياء التي فيه إلى البحر .. وعندما حاول بعض أعضاء المجلس الأعلى تفريغ محتويات صندوق أخر للركوب فيه واللحاق بالمسخ الهارب ، صعقهم واقع أن معظم الأشياء في الصندوق لم تعد تنفع لشيء .. مجرد خردة صدئة .. قطع متعفنة وخرق ممزقة ..

رغم أن الكثيرين - وفق رواية أخرى - يتذكرون بألم تلك الرؤية المشؤومة التي صعقت الجميع في صبيحة ذات اليوم ، عندما بدا المسخ مشنوقاً في ساحة المدينة بسلك معدني رفيع كاد أن يفصمه إلى نصفين . لماذا وضع المسخ نهاية لحياته .. سؤال أقلق راحة المؤرخين طويلاً .. هل أراد الانتقام من المدينة ؟ أم أنه لم يعد يحتمل المرآة المعلقة في غرفته .. وربما يأس من إيجاد صديق ما .. كائن ما .. مجلس ما .. ذو نظرات ومشاعر أخرى .

الأمر المؤكد أن المسخ بعد هذا اليوم اختفى من المدينة .. لتحتد الأزمة وتمسي أكثر شراسة ووحشية .. أحلام الملايين ضاعت دون رجعة .. ولم يعد أحد يستطيع الاقتراب من الشاطئ حيث الرائحة المنبعثة منه كفيلة بالقضاء عليه .. مزيج من الصدأ والعفن والرطوبة والتفسخ لا يمكن لأي كائن احتماله . لم يتبقّ على الشاطئ سوى حفنة من الأشياء الصالحة للاستخدام في تلك الصناديق والتي لن تكفي الجميع

بطبيعة الحال . مما حدا بالمجلس الأعلى للمدينة ـ الذي لم تزعجه لسبب ما تلك الرائحة النتنة ـ وبعد أن صعد إلى الجبال لرؤية الأزمة بصورة أوضح ، لاتخاذ القرار الأول في تاريخه بمصادرتها ووضعها في المتحف التاريخي .

لقد كان واثقاً أن الكائنات ستنسى مع الزمن وتغرق في تفاصيل حياتها الروتينية وكأن شيئاً من تلك الأشياء لم يكن يوماً في المدينة .

***

سنوات طويلة متسخة بالضجر عاش أهل المدينة وهم يتطلعون إلى أشيائهم من خلال الزجاج المقوى ...

قبل مجيء الصناديق سقطت الكثير من الأشياء الصغيرة وماتت .. ليس بهذا العدد .. لكن من حين لأخر .. أشياء ما كانت تتساقط وتذوي حاملة معها شيئاً من حياتهم ... من أفراحهم وأحزانهم ... ليلملموا فتاتها يضعوها في أوعية زجاجية صغيرة معتمة ومحكمة الإغلاق .. وعند بداية كل عام كانوا يتذكرونها .. بأن يفتحوا تلك الأوعية ويستنشقوا نفساً عميقاً من رائحتها العبقة ويعيدوا إغلاقها بسرعة كي لا تتبخر . فمن غير الذاكرة كانت كل الأشياء المكسرة وبكل ما تحمله من معنى لهم سوف تضيع .. ولم تكن ثمة جريمة أعظم من تحطيم وعاء لكائن ما . لكن ما أن اشتعلت الفوضى وانطلق الجنون وراء الصناديق المهاجرة .. ما عاد أحد منهم يلتفت إلى تلك "الجثث المحنطة" كما أسموها .. وبين أقدامهم الممسوسة تكسرت ملايين الأوعية الزجاجية القديمة .. ومعها تكسرت ذاكرة المدينة .

***

بدت المدينة لوحة مستغرقة في كآبتها .. كأنها أصيبت بمس من الذهول .. كأن السماء أمطرت على رأسها أطناناً من الماريجوانا .. عيونهم كانت تتأرجح بين

المتحف والعفونة وبقايا الزجاج .. باحثة عن شيء ما .. لتعود وتحدق في السماء .. شاخصة إلى الليل .. كأن ثمة من سيخرج منه للتو .. في انتظار النهار ..

***

ومضى هذا الجيل حاملاً معه الحسرة في احتضان الأشياء المتوارية خلف زجاج المتحف التاريخي .. الأشياء التي اعتقد "المجلس الأعلى" أنها سوف تشيخ .. وانتظر أن تهرأ وتستحيل إلى انتيكات بالية تصلح للفرجة كإرث من الماضي الجميل فحسب ..

***

مرت أزمنة ثقيلة .. حائرة .

في منتصف النهار جاء الزائر إلى المدينة ..

مخلوق جديد وغريب .. يحمل في جسده قطعاً تختلف قليلاً عن تلك المركبة فيهم .. فتختفي لديه تلك القطع المتدلية من أوساطهم وتبرز كتل مكورة في صدره . ومنذ الرؤية الأولى ساق إليهم مزيجاً منوعاً من المشاعر التي لم يألفوها يوماً .. وعندما دنا منهم أكثر وبدأ يتحسس تضاريسهم أخذت تلك القطع المتدلية تحت بطونهم تكتسب شكلاً جديداً .. متطاولاً .. قاسياً .. بقبة تشبه الفطر البري وفوهة بركانية توشك على الانفجار .. اعتراهم أحساس وكأنهم علقوا من الخلف بصنارة صيد .. بوجود سيل من اللزوجة يريد الانطلاق من داخلهم ..

هذا الإحساس كان ينمو بقوة كلما اقتربوا من المخلوق الحديث أكثر فأكثر .. وما أن لمسوه حتى انتهى مفعول الصبغة القاتلة التي لطخت وجوههم وأرواحهم دهراً طويلاً من الزمن .

وبدأت مسيرتهم داخل الأنفاق الضيقة اللزجة واللذيذة بذات الطريقة التي مضت بها الصواعق في الأرض يوماً : دون ابتسامات ومواعيد كانوا يحفرون طريقهم .. دون قصائد وتساؤلات كانوا يرتجفون فيه .. ودون أزهار يبدؤون من جديد .

***

خرج من تلك العتمة لافظاً أنفاسه المتعبة .. استلقى على ظهره متأملاً طيور النورس بارتياح عظيم . أما المخلوقات فقد سحرها ذلك الخط المتوهج المرسوم في الأفق اللامتناهي الذي بدا لها كبداية ما :

- ماذا خلف البحر ؟
- لا أعرف .
- مدينة أخرى ؟
- لا أعرف .. ربما ..
- ألا ترغب في رؤية مدن أخرى ؟
- لا أعرف .. لماذا علي أن أرى مدناً أخرى ؟
- ربما فيها أشياء لا توجد في مدينتكم ؟
- أشياء .. أي أشياء ؟

تساءل بنفس التعجب والبرودة والدهشة .

- أشياء جميلة .. قد تحبها .. أشياء قد تشعر كأنها ولدت لحظة اكتشافك لها .. ولدت كي تراها أنت وحدك .. ؟
- عن أي أشياء تتكلمين ؟
- انظر إلى الطيور .. انظر كيف ترقص في الهواء .. ألا تريد الطيران .. ربما في المدن الأخرى الجميع يطير ..
- ولماذا سأرغب بالطيران؟ إلى أين سأطير ؟

***

التساؤلات التي شرعت المخلوقات القادمة إلى المدينة بطرحها عليه كانت تثير القلق في نفسه يوماً بعد يوم . تساؤلات لا حصر لها أخذت تعبث في رأسه .. صور مبهمة غير متكاملة تتراءى له : وجوه مألوفة وغريبة في آن واحد .. سفن زجاجية ضخمة ممتلئة بالرماد .. هياكل خشبية تمشي على البحر .. أمواج من البصاق والدم ..
ماذا يعني كل ذلك ؟

عادت تتراءى لهم الأطياف الغريبة .. الأوعية الزجاجية المتكسرة .. الصناديق المتعفنة الراسية على طول الشاطئ .. المسخ المعلق في ساحة المدينة ..
أخذت تتصاعد من أرواحهم رعشات قوية .. شوق للرؤية .. رغبة في الاستحواذ .. ميل إلى الاطمئنان .. وتوق إلى السعادة .
منذ أن أتى الزائر إلى المدينة ما عادوا يطرقون أبواب المتحف التاريخي .. لكن فجأة مضوا جميعاً إلى هناك .. دون أن يدروا لماذا .

وجدوا أنفسهم يمتلكون لأول مرة منذ عقود شيئاً لم يصادره "المجلس الأعلى" للمدينة ويضعه في المتحف مع كل أشيائهم المسلوبة الأخرى . ربما لوفرته .. ربما لأن المجلس أخذ منه حاجته .. ربما لأنه لا يهتم به .. وربما لأن الوقت لم يحن بعد لمثل هذه الخطوة .. لكن ماذا لو أتى هذا الوقت .. أي كارثة ستحل بهم لو فقدوا ذلك الشيء بعد أن اعتادوه وألفوه وأحبوه .. هل سيستطيعون العيش من دونه .. هل سيتحملون النظر إليه من وراء الزجاج دون أن يلمسوه ويتحسسوه ويقبلوه .. ما الذي سيفعلون بقطعهم المنتصبة أمام الزجاج .. أم أنها ستعود لتتدلى أمامهم كعناقيد عنب ذابلة .. مجرد التفكير في ذلك كان مؤلماً بلا حدود ..

الأمر الوحيد المؤكد أنهم لن يسمحوا لذلك أن يحدث مهما كان الثمن .. لن يقبلوا خسارة هذا الشيء .. هذا الشيء ملك أيديهم ولن يتخلوا عنه ..

***

قررت المخلوقات الحديثة المغادرة إلى مدن أخرى .. البحث عن تلك المدن .. لم تخمن حينذاك أن القدر سيصلبها على جدران هذه المدينة الموحشة بالذات ، دون أن يسمح لها بالخروج منها يوماً . عشرة الكائنات أمست مضجرة للغاية ، وعلى الرغم من العمل المشترك الرائع الذي كانوا يمارسونه معاً بمتعة ، كانت رؤوسها لا تزال معلقة على أكتافها ، ولم تكن مستعدة للتخلي عنها أو التضحية بها .. الأمر الذي تكفل به الآخرون .

انقضت الكائنات عليها في حشود بربرية هائلة وأخذت تفتك رؤوسها بأيديها الثقيلة وتقضم جماجمها منتزعة أدمغتها منها حيث أخذت تختنق التساؤلات الكبيرة ، لتتلاشى في الهواء نظراتها الساحرة .. البعيدة .

كانت تبحث عن رؤاها القديمة التي نقلتها مورثات الأجداد إلى خلاياها عبر السنين ، لكن الصورة استحالت ورقة مشققة باهتة لدرجة انسياقهم معها إلى مجهول ، حملوا شيئاً من تقاليده وأبعاده وألوانه ، أما ما هو بالضبط ؟ فعبثاً حاولت الجدة أن تتذكر .

ومنذ تلك اللحظة أصبحت الأسئلة التي لا تحتمل أية إجابات شعاراً لتاريخ كل المعارك القادمة .

"لقد أرادوه حياً أو ميتاً .. لكنهم لم يعرفوا من هو .. لم يعرفوا ماهيته . ما الذي يرتديه عندما يتجول في الشوارع ؟ كيف يضحك عندما ينتابه اليأس ؟ كيف يرقص ؟ أيحمل اسماً أم لا ؟ ماذا يحب أو يكره ؟ ولأي سبب يعشقونه ؟ لهذا فقدوه إلى الأبد .. "

توقفت الجدة لوهلة وكأنها أرادت توضيح نقطة ما .. لكنها لم تكن واثقة من قدرتها على ذلك . لتتابع من جديد :

"نحن كذلك فقدناه ذلك اليوم .. لعلنا لهذا لم نقل لهم الحقيقة .. لم يعد أحد بعد ما حدث في حاجة إلى الحقيقة .. حتى نحن "
تتنهد للحظات ومن ثم تتابع :
"مواجهتهم كانت مستحيلة .. بدوا لنا صنفاً نادراً من الحمقى .. أو المجانين المسالمين الذين لا ينتظرون من الزمن أي ومضة .. وفي أي اتجاه كان .. لذلك احتمال كهذا لم يخطر على بالنا أبداً .. هاجمونا بصورة مفاجئة تماماً وبدؤوا معركتهم .. أما نحن فلم نفهم شيئاً .. كنا ننظر إليهم برعب ممزوج بالدهشة .. لقد دمروا كل الأشياء التي حملناها معنا .. ببساطة لأنهم لم يفهموها .. لم يطيقوا النظر إليها .. بيد أنهم كانوا على يقين أن ما يبحثون عنه موجود في مكان ما داخل رؤوسنا .. فمزقوها بوحشية لم نعتقد يوماً بوجودها في مدينة ما "

***

في هذا اليوم سقط مطر غزير وطويل محاولاً غسل آثار "المجزرة الكبرى" . على أقل تقدير بدت له "كبرى" حينذاك . ولم يعتقد للحظة بسذاجته المعهودة أنها رأس القافلة .. وبأنه لن يستطيع في شتاءٍ قادمٍ ما أن يمسح من وجنة المدينة هذه الندبة الحمراء المشتعلة .

الأمطار جمعت الكريات البيضاء والسوداء في سيول جامحة ، وكأنها لفظت من بركان من الدم . أما في الصباح فقد بدت هذه الأجزاء الطويلة كشعر زئبقي يلف المدينة ، بعد أن ارتدت مراسم غريبة في استعدادها لكرنفال من نوع خاص ، تقيمه للمرة الأولى في حياتها .

***

عندما استيقظت الكائنات شعرت بحركة غريبة .. غير اعتيادية في أجسادها . بألم مبهم .. بدا على أشده في ذلك المكان الواقع أسفل بطنها بالضبط .

لم تدرك في البداية ما يجري . النعاس كان يغلبها بعد ، والشعور بالخيبة المفرطة يشل كل أعضائها . البعض اعتقد أن ذلك مجرد تعب عابر وطبيعي بعد تلك المجزرة .. إلى أن صرخ أحدهم :
" سرقوها .. انظروا .. لقد قاموا بحرقها "

لم يصدقوا بادئ الأمر .. وفكروا للحظات بإصلاحها وإعادتها .. لكن شكلها لم يدع مجالاً للشك في أنها انتهت إلى صنف من الذكريات فحسب .
"السفلة .. ما الذي فعلوه"

لم يعد ثمة فائدة من تحريكها .. لقد ضاعت اللذة الإلهية .. ضاعت دون رجعة . لماذا ؟ عبثاً حاولت العثور على السبب . "الانتقام " كان مفهوماً غامضاً بالنسبة لتلك الكائنات ، لذلك ما كانوا قادرين حتى على التنبؤ بمعركة مضادة من هذا النوع . أما معركتهم هم فقد كانت لها أهداف نبيلة .. كان لابد منها من أجل تحديد مصير المدينة ومستقبل جنسهم بأكمله .. ألا تستحق معركة كهذه ما سحق ودمر وتكسر وضاع في سبيلها من الأشياء ..

***

في الشوارع العريضة ، وحيث علقت خصيهم على الأعمدة المنتصبة على طرفيها محترقة تحت الشمس ، بدأت الجنازة . كانت جنازة ضخمة .. جنازة من دون توابيت ودون مقابر . المدينة بأجناسها وكل الأشياء فيها تحولت إلى جنازة وتوابيت ومقابر . أما العزاء فلم يعرف أحد أو حتى يخمن مكان حدوثه حتى اللحظة . من يدري ربما لم يكن ثمة مجلس عزاء على الإطلاق ، إذ ليس ثمة أي وثائق تشير إلى التاريخ الذي انتهت الجنازة فيه .

المخلوقات المنتقمة مضت إلى النوم ، بعد أن امتزجت في أعماقها آلام المجزرة برعب الانتقام والثأر . كانت تعتريها رغبة ملحة في الاسترخاء لدرجة الموت إن لم

يكن في الموت نفسه ، ورغبة في الاستحمام طويلاً طويلاً .. لكن رائحة اللحم البارد المتفسخ حصدت البحر ..

أنفاقها ستمسي نائية ، وربما ستجف مع الأيام وستبني العناكب ممالكها على بواباتها ..

أما "الآخرون" فقد كانوا يسيرون مطأطئين رؤوسهم وأياديهم دون هدف .. عاد إليهم ذهولهم وكآبتهم وذكريات سنين طويلة من الماضي التعس .

***

مع الزمن أصبح "المجلس الأعلى" للمدينة أكثر ضخامة بشحومه المتدلية وعظامه المتطاولة . أسنانه حادة كالأنصال وعيونه لم تعد تحصى ، أما آذانه فقد امتلأت بطبقات كثيفة من الأوساخ والقطران . قبضاته لفت بقفازات ثقيلة من الفولاذ لتسحق أياً من الأشياء التي تخرج بين الحين والآخر من بعض الرؤوس ، وتضعها خلف قضبان المتاحف .

لماذا ؟ لم يجرؤ أحد على السؤال .. بل السؤال بحد ذاته لم يكن وارداً في المدينة المغلقة ، ومن المستبعد وجود كائن فيها كان قادراً على الإجابة عليه ، فالفلاسفة أنفسهم عجزوا عند ظهورهم عن القيام بذلك :
"هل كانت الأشياء نادرة حقاً بعد أن تركت مئات الأجيال كل أشيائها في المتاحف ومضت .. نعم عدد الكائنات ارتفع هو الآخر .. وليكن .. ما الذي دفع "المجلس الأعلى" للقيام بعملية إبادة ممنهجة كهذه .. هل هو مبدأ "المساواة" الأسمى بين سكان المدينة ؟ أم الاستحواذ الممتع والشامل لنكهة الأشياء ؟ "

وهكذا كانت تُحمل بعربات مزينة كل الأشياء الوليدة كاكتشاف جديد إلى المتاحف ، لتمر فوقها قرون من الانتظار العدمي . وهو ما جرى بعد زمن قصير من تاريخ

الجنازة ، عندما بدأت تتخمر في رؤوس الكائنات عملية خلق جديدة .. لخصي جديدة . هناك في هذه الفجوات المفتوحة بدأ التفكير في "شيء جديد" .

***

في المتاحف أخذت تُلاحظ حركات غريبة بين الأشياء المصادرة . بدا أن ثمة تغييرات ما تجري من وراء الزجاج الثخين في الألوان والأشكال والمقاسات ، الأشياء كأنها لم تعد هي ذاتها .. فانتفض "المجلس الأعلى" مستنفراً "ما الذي يحدث؟" وتدحرجت التخمينات والنقاشات :
"أيعقل أن وباء ما أصابها .. ماذا لو أدى فيروس غامض إلى إباداتها وانقراضها "
"سوف نجبرهم على ابتكار أشياء جديدة ومعافاة " .
"لكن هذه أشياء معتقة لا تقارن بأي إنتاج معاصر" .
"علينا أن نحاول علاجها" .
"فكرة رائعة .. لابد من إيجاد عقار ناجع لمرضها " .
"لا يمكننا أن نخسر بأي حال من الأحوال هذه الأشياء" .
"بعض الكيماويات والعناصر الطبيعية وتعود سليمة" .
"لكن ماذا لو تغيرت ولم تعد كما كانت" .
"أمر طبيعي .. التغيير سنة الكون .. ومن يدري ربما إذا ما تغيرت ستصبح في حال أفضل" .

لكن قبل أن يبدأ المجلس حملته الطبية ، فاجأته المتاحف بظاهرة أشد عجباً من الأولى ، إذا بدا أن ثمة تزايد واضح في عدد الأشياء .. وكأنها تستنسخ بعضها بعضاً .

"الفيروسات لا تهدد الأشياء .. إنها فيروسات رائعة" صرخ أحدهم داخل المجلس الذي هب واقفاً منتعشاً بهذه الأخبار الطيبة ، التي أدرك الجميع مغزاها وجدواها على الفور . حتى أن بعضهم اقترح حصد هذه الزيادة على الفور والإفادة منها ، في

حين قررت الغالبية التروي حتى تستكمل هذه الظاهرة المدهشة دورتها وتصل إلى الذروة ، إلى موسم الحصاد الكبير للأشياء .

بيد أن الأشياء لم تتوقف عن التكاثر . الدورة بدت دون نهاية ، والموسم المؤجل أكبر من أن تجنيه كل حصّادات المدينة ، وأضخم من أن تتسع له كل البيادر والصوامع والمستودعات والمخازن وحتى صدر "المجلس الأعلى" نفسه .

ضاق المكان بالأشياء في متحفها التاريخي الأول ، وأصبح لزاماً على المجلس بناء متاحف جديدة . لكن الأشياء لم تتوقف عن التكاثر ، حتى أصبحت المتاحف بالمئات في كل شارع وزاوية وساحة من المدينة . ليصبح مع الزمن تكاثر الأشياء وبناء المتاحف ظاهرة لا تحمل أي تساؤلات معها أو علامات تعجب . وتنقضي عقود طويلة والأجيال المتعاقبة تكتفي بالنظر إليها عبر الزجاج والقضبان الحديدية .

***

أصبح الشغل الشاغل للمجلس الأعلى كيفية التخلص من الأشياء بعد أن ضاق ذرعاً بوفرتها . لقد حاول دوماً أن يجد علاجاً لإيقاف تكاثرها بأي وسيلة كانت ، لكنه لم يتساءل أو يفكر على مر العصور لماذا عليه أن يفعل هذا ، ليعلق اللغز في الواجهة مطالباً بالاكتشاف التاريخي العبقري .

من يدري لعله كان يقوم بذلك بحكم العادة ، طالما أن "العادات" لم تكن بالممارسة الجديدة على المدينة ، بل لقد لوحظ تراكمها منذ بداية التاريخ ، والسبب كما تبين بعد زمن طويل من تلك الحقبة تشوهات خلقية في تلافيف أدمغتهم .
أتت أزمنة بربرية .. جاءت معها مجالس فذة قررت أن تحل المشكلة بأبسط الوسائل ، فأحرقت المتاحف .. ألقت بها في المحيط .. أو نفتها إلى ما وراء البحار .

الأشياء لم تمت رغم كل شيء .. كان بعضها يخرج من النيران .. من الأعماق ومن أقاصي المساحات ، لتعود إلى المدينة .

بدا أن ثمة أشياء لا يمكن حرقها لا يمكن إغراقها لا يمكن سلبها أو إضاعتها .. لكن الكائنات لم تخرج للبحث عنها .. آمنت لسبب ما بموتها .. ولذلك ضاع الكثير منها إلى الأبد .. وبعد كل تلك الأكوام من الأزمنة التعسة عادوا من جديد محرومين من الأشياء .

***

ذلك الشيء وحده لم يضع منهم .. بقوا متمسكين بطيفه وبكل الذكريات الحميمة التي عاشوها معه .. لتحملها أجيال بعد أجيال من الكائنات ومن الزوار الغرباء اللذين قدموا ذات اليوم إلى المدينة على حد سواء .

هذا الشيء لم يكن كتلك الأشياء التي ابتلعها العفن في الصناديق وتاهت في البحار ، وبدأ الإرهاب الأسود يلاحقها في كل مكان ...

كثيرة الأشياء التي تضيع دون أن يأبه لها أحد ، أحياناً يمكن ببساطة البحث عن أشياء أخرى ،

لكن ماذا إن لم تؤمن بضياعها لتمضي حياتك باحثاً عنها دون جدوى ، وترحل عن الدنيا دون أن تجدها كما رحلت أجيال لا تحصى من أبناء المدينة وهي تنتظر وهي تبحث ..

لكن في "عصر الخصي" الذي ضاع لم يكن أي شيء .. لم يكن مجرد شيء عابر يمكن التخلي عنه ببساطة ونسيانه .. معه جاءت الكثير من الأشياء التي عرفها أهل المدينة لأول مرة في تاريخهم .. في هذا العصر بالذات بدأت تتشكل تلك

المصطلحات المعقدة :"الحب" .. "الغيرة" .. و"العشرة" .. حتى الألم أمسى أكثر قسوة ، والسعادة أكثر بهجة .

نعم لقد استطاع "المجلس الأعلى" جعل المدينة تكتفي بالنظر إلى كل أشيائها الساكنة عن بعد عبر زجاج المتاحف ، لكن هذا الشيء حرك المتاحف وكل الأشياء التي في داخلها ، ورغم كل الدمار الذي خلفه المجلس في المتاحف والأشياء ، استطاع هذا الشيء أن يعود إليهم .. أن يقف على أبوابهم ونوافذهم ودروبهم .. صحيح أنهم لم يروه .. لكنهم كانوا يشعرون بوجوده قريباً منهم .. كانوا يدركون أنه في مكان ما .. أنهم يكادون أن يمسكوا به .. تلك المشاعر الملتهبة التي غمرتهم جعلتهم يتخبطون غاضبين ساخطين على كل شيء ومن كل شيء .. وكأن مساً من الجنون اللانهائي أصابهم وجعلهم مستعدين لتمزيق كل شيء يقف في طريقهم .. وكان الانفجار الكبير ..

***

بدأ الإعصار في المدينة ضد "المجلس الأعلى" .. واشتعلت الثورة .

أخذت الكائنات تجتاح القنوات اللزجة الصدئة والصفراء لآذانه ، محاولة بأيديها الوصول إلى الجدران و تلمس الاتجاهات .. كثيرون دفنوا تحت تلك القذارة .. بعضهم اختنق من الرائحة .. ومنهم من تاه وشرع في الصراخ عسى تسقط الأصداء شيئاً من النتانة ..

تحت أضراسه هرس الكثيرون .. لكن هذا لم يمنع وصول بعضهم إلى داخلها والنخر فيها .. أو الاختباء بينها في محاولة لتفكيكها ..

حاولت الحشود التسلق إلى عينيه متشبثة برموشه القصيرة لاختراقها ، معتقدة أنها سترى عالماً جديداً عبر شبكيتها ..

توجهت الكائنات نحو المتاحف .. كسرت زجاجها وقضبانها واقتحمتها .. وفي بحثهم عن هذا الشيء كانت كل الأشياء الأخرى تتهاوى .. تتحطم .. تحترق .. وتتفتت .

ورغم ذلك لم يجدوه .. ربما ما عادوا يعرفون ملامحه .. نسوا رائحته وصوته وحركاته .. ولم يعد بالنسبة لهم سوى صورة مغبشة مبهمة من الماضي الضائع في ذكرياتهم ..

أرعبت هذه الهستريا "المجلس الأعلى" الذي أخذ الألم ينخر أضراسه والأصوات تصم أذنيه والغشاوة تغطي عينيه .. فكر لوهلة بإعادة بعض الأشياء إليهم .. لكن ماذا لو زاد ذلك من هوسهم وجعلهم يطلبون المزيد من الأشياء ، ويدفع بعدوى جنونهم لتفتيت رأسه .. ماذا لو أنهم ما عادوا يأبهون بأي من هذه الأشياء .. ماذا لو اقتحموا ما تبقى من متاحف قليلة لم يصلوا إليها بعد .. عندها لن يبقى أي شيء على الإطلاق .. عندها لن يبقى لوجود "المجلس الأعلى" نفسه أي معنى على الإطلاق .. فكان لابد من القيام بخطوة تاريخية تعيد تشكيل التاريخ والجغرافيا ..

***

توقفت مئات البواخر الضخمة في الميناء .. ووزعت المناشير في كل أنحاء المدينة .. وانتشرت الشائعات كالوباء بينهم :
"هناك في العالم الواسع الغامض القائم خلف بحر الظلمات .. العالم البعيد الذي لا تراه إلا السنوات الطويلة الشاقة القادمة سوف تجدون كل الأشياء .. في ذلك العالم الجديد كل الأشياء متوفرة مجاناً .. وللجميع .. وخاصة ذلك الشيء العزيز على قلوبكم .. هناك سوف تعرفونه من النظرة الأولى .. هناك سوف تستيقظ الذاكرة وتعيده إليكم بشحمه ولحمه كما عرفتموه في المرة الأولى التي أتى بها إلى المدينة ..

***

"ماذا لو أمطرت السماء خشباً حينذاك ؟"
تساءل أحد الفلاسفة ..
"ربما ما كانت الحرب لتشتعل "

الحرب الطويلة القاسية في سبيل الحصول على مقعد في إحدى تلك السفن المهاجرة إلى العالم الجديد . إلى حيث تنتظرهم الأشياء الجميلة .. المعلبة .. النظيفة والمبسترة .. حيث تنتظرهم الخصي الطرية كالعجة .
"حينذاك ربما ما كان أحد ليبقى في المدينة عدا :المجلس الأعلى" المعظم "
"لكن ما الذي كان سيحدث هناك في العالم الجديد ، عندما يكتشفون أن الأشياء التي يبحثون عنها لا وجود لها .. هل ستبدأ دورة جديدة من الخلق .. مسخ جديد .. ومجلس جديد .. وأشياء جديدة .. ومتاحف جديدة .. وحروب جديدة .. ".
"ربما مغزى وجودنا لا يتعدى الخروج من تلك الدورة العبثية من الخلق .. "

على كل حال السماء لم تمطر خشباً حينذاك ، وربما تأملات الفيلسوف لا تستحق حتى التوقف عندها ..

***

في هذه الحرب سقط الكثيرون دون كلمة .. وما فتأت السفن تمضي واحدة تلو الأخرى بمن استطاع الوصول إليها دون عودة .. انتشلت غابات كاملة من جذورها وشيدت سفن جديدة ومضت بالمهاجرين دون رجعة ..

المعارك كانت تحتدم مع الزمن وتزداد شراسة .. الدماء اختلطت بمواد البناء والأخشاب ورمال الشواطئ وأشرعة السفن ومياه البحر .. ورغم عدم وصول أي أخبار عن المهاجرين ، الاقتتال كان يستمر ويتأجج ليجتاح الموت المدينة بأكملها .

لقد تغيرت الكائنات في زمن الحرب أكثر من أي أزمنة مضت ..

رائحة الدم أصبحت شيئاً ضرورياً لا غنى عنه لهم . النظر إلى الجثث الممزقة المتراكمة .. لذة حقيقية ، حتى أن تصفيف صورها في ألبومات خاصة أمست الهواية المفضلة لدى الكثيرين ..
بل أن بعضهم بدأ يخلدها في لوحات تشكيلية غاية في الإتقان والجمال ..
وطالت الحرب إلى أن نسيت الكائنات لماذا تقاتل .. ما الهدف الذي تسعى وراءه وتقاتل في سبيله ـ كما ضاعت في ذاكرة "المجلس الأعلى" ذات عصر مبررات مصادرة الأشياء ـ ولم يعد يحمل لها أي أهمية كانت ..

هذه الحرب عدها المؤرخون خطوة حضارية جبارة . إذ على الرغم من الدمار الذي أعاد وجه الأرض إلى خلفها ، والحرائق التي مسحت دورها وأشجارها وكائناتها ، وبالرغم من الرعب والألم والانتظار، هذه الحرب أنجبت شيئاً لم يعرفه أحد من قبل ..

عندما رآه المجلس هزته نشوة غريبة سوداء ، في البداية لم يصدق عينيه معتقداً أنه مجرد سراب خرج من الدخان أو الأجساد المتفحمة .. ولأول مرة لم يفكر ولم يشأ المجلس زجه في المتاحف . بل أخذ يغذيه منذ ولادته الحافلة إلى عصور ما بعد التاريخ .. وبأفضل الأطعمة ، يداعبه كطفله البكر ويعطيه أكثر مما يطلب .. ومنحه اسم "الانتصار" .

***

استمرت الحرب وتمادت في دمويتها ومعها كان هذا الشيء الجديد يكبر ، ويرتدي معالم وحشية ..

اتسعت المتاحف وتزايدت أعدادها مرة أخرى لدرجة لم تعد تطاق ، بعد أن سيقت إليها الكثير من الأشياء التي ولدت في زمن الحرب وتكاثرت ..

الكائنات استحالت إلى وحوش مفترسة أكثر فتكاً من أي وقت مضى ، تحمل في أعماقها عناصر غامضة لم يفهمها لا المجلس ولا هم أنفسهم ..

المدينة ما عادت ترضخ لأي سيطرة .. والحرب بدت بلا نهاية . كان لابد للمجلس من اتخاذ إجراء ما .. أكثر فاعلية من سابقه في محاولة لوقفها ، وهكذا قام على غير إرادته بدفع عجلة الحضارة إلى الأمام مرة أخرى ..

***

أعلن المجلس الأعلى فتح المتاحف أمام الجميع .. كل الأشياء منذ الآن يمكن لأي كائن أن يقوم باستئجارها ..

تساءلت الكائنات في البداية عن أي أشياء تدور الأحاديث ..

حقبة غير قصيرة من الزمن عبرت رؤوسهم .. كانوا بحاجة إلى لملمة أشلاء ذاكرتهم التي مزقتها القرون والثورات والحروب والانتصارات والمجالس كي يستعيدوا ذلك الشوق القديم الدافئ للأشياء .. إلى كل الأشياء ..
انتابتها ما يشبه الكهرباء الناعمة أو الرذاذ البارد من المطر ..

إنها للوحة إلهية .. كيف كان يرقص شوقهم البعيد في داخلهم .. يلهبهم .. ويمسح وجوههم بفراغ ساحر .. وهي تحدق في أشيائها الضائعة المكفنة المبعوثة من الماضي .

حتى أفقرها كان مستعداً لأن يدفع بكل ما يملك .. بأسلحته .. بأخشابه .. وبانتصاراته جميعاً ليستأجر شيئاً .. أي شيء وليكن صغيراً كـ "ابتسامة" ما وللحظات معدودة فحسب ..

***

الأشياء اهترأت مع السنين .. تمزقت .. تبدلت .. حتى الأشياء البسيطة التي كانت تولد في المتاحف طالتها أيدي الكائنات وجعلتها قذرة .. ومع عمليات الاستئجار المستمرة والواسعة كل الأشياء في المتاحف أمست شاحبة .. متسخة .. مستباحة .. ومع الزمن أفضى تكاثرها إلى أشياء ممسوخة مشابهة بل أكثر تشوهاً .. أشياء لا تزعج أحداً من أبناء "المجلس الأعلى" .. مما جعله يفرج عنها في خطوة تاريخية أخيرة ويضعها في المخازن والدكاكين والحوانيت .

الأشياء لم تعد تؤجر .. كل الأشياء أصبحت للبيع ..

***

أقيمت الأعياد والكرنفالات الصاخبة ورفعت الكؤوس احتفالاً بهذه القفزة الحضارية الجبارة .
أخيراً .. عادت الأشياء إليها ..
عادت إليها بعد كل أنواع المعارك والصراعات والمآسي والحروب على مر القرون المتعاقبة . الكائنات لم تعرف أن أشياءها التي وضعت في المتاحف يوماً ليست هي ذاتها التي تحملها بين أيديها اليوم .. الأشياء القديمة .. النبيلة .. والنظيفة اختفت من تلك المدينة إلى الأبد ..

***

تجارة الأشياء أصبحت رائجة ومربحة .. في الشوارع علقت لافتات ساطعة على أبواب المولات الضخمة ، وقد كتب عليها ببساطة وفخر .. "لدينا تباع أرخص الأشياء" .. "معرض الأشياء المستعملة" .. "تنزيلات خاصة على الأشياء التافهة" .. "نشتري أشياء مبتكرة" ..

الأشياء أخذت تصنع من خامات الخردة وحسب الطلب .. الذي كان أشهر ما قام بإنتاجه هو "السعادة" .

***

التطورات الحضارية وصلت إلى ذلك الشيء كذلك .. كان يتم استئجار الخصي لمتعة عابرة .. ولساعة واحدة .. عندها ظهرت أولى العاهرات ..

البعض كان يستأجرها ليوم كامل أو لعطلة نهاية الأسبوع على أمل أن ينجب وريثاً لذريته .. فظهرت أولى الزوجات ..
آخرون كانوا يداوموا على استئجارها في أيام محددة ولأماكن محددة .. فظهرت أولى العشيقات ..

وما أن أخذت الخصي تباع وتشترى حتى بدأت مصطلحات من نوع "الخيانة" و"المساكنة" و"السفلس" و"الدعارة" و"الزنا" بالتداول في بورصة الأسواق على نحو واسع .

مع الزمن طالها التغيير ككل الأشياء الأخرى .. صحيح أنها لا تزال صالحة للمتعة واللذة والتكاثر .. لكنها لم تعد هي ذاتها بعد طول استهلاك واستعمال واستغلال .. وقطعاً لم تعد تنتج بضائع شبيهة بسابقاتها في العصر الذهبي ..

ولادات مختلفة .. مشوهة وقبيحة .. أمست تخرج من البطون وتكبر في المدينة ..

ولادات سيطلق عليها منذ الآن وإلى زمن أسود طويل قادم اسم "الإنسان" ..

***

أما هو .. فقد عاش منعزلاً عن الجميع .. وحيداً منزوياً على نفسه في ركن معتم هادئ لا يراه أحد في أقاصي المدينة .. بقي ينتظرها متذكراً تلك الأيام الطيبة التي عاشاها معاً .. وقد شرع الآن في كتابة إصحاح جديد .. لإيمانه أن أجيالاً أكثر سحراً سوف تأتي يوماً ما إلى المدينة .. وربما لأنه لم يعد يستطيع الانسجام مع الوقت الثقيل الذي لا ينتهي ..

كل ما وجدوه في غرفته بعد رحيله الغامض قصاصة محترقة من ورق أصفر قديم لم يميزوا فيها سوى تلك الكلمات : "الحلم الأخير كان الموت" ..

***

الفهرس

- الساعة المقدسة ---------- 4
- الشاشة ---------- 8
- موت شاعر ---------- 13
- الملحمة ---------- 16
- الكلب ... السافل ... ابن القحبة ---------- 19
- الجائزة ---------- 40
- المبادرة الطيبة ---------- 46
- حوارية وطنية ---------- 50
- شهوة الأشياء ---------- 58